فلسفة التنوير لدى كسينوفان

د. محمود السيد مراد *

مقدمة :

إذا كان بعض مؤرخى الفلسفة قد درج على النظر إلى كسينوفان الكولوفونى (٤٧٣-٥٦٥ ق.م Xenophanes) على أنه مجرد شاعر فحسب كان يتكسب عيشه من إنشاد أشعار هوميروس وهزيود، وأنه قد دخل فى زمره الفلاسفة على سبيل الخطأ، وما كان له أن يدخلها.[١] فإننا نرى بعد الدراسة المتأنية لأشعار كسينوفان أنه لم يكن فيلسوفاً فحسب، بل وكان فيلسوفاً تنويرياً اهتم طوال حياته التى تقرب التسعين عاماً بأداء رسالة إصلاحية تهدف الإرتقاء بالمجتمع الذى عاش فيه واخراجه من نير الخرافة إلى جو العقل النقى.

شعر كسينوفان -بحسه الشعرى المرهف- بسخط على الحالة المتردية التى إنتهى إليها وطنه : من وقوع تحت السيطرة الفارسية، وسياده الخرافات والأساطير، واستسلام لروح التكاسل والعبث، فهب يحاول تغيير هذا الواقع. وكان كسينوفان متمتعاً بكافة المقومات الشخصية لأداء هذه الرسالة : إذ كان متعدد المعارف، سريع البداهة، حاد الهجوم، عاشقاً للحرية. وجعلته هذه المقومات يرفض العيش فى مسقط رأسه فى ظل الاحتلال الفارسى، [٢] واختار حياة التجوال الحر حتى لا يسلم قيادته إلا لعقله وحده. ونجحت جماعة المقاومة ضد الحكم الفارسى التى إنضم إليها كسينوفان فى إقامة وطن جديد لها فى الغرب الإيطالى فى "إيليا". وفى هذه المستعمرة الجديدة نشر كسينوفان فكره

---

* مدرس بقسم الفلسفة بآداب سوهاج.

(١) قال هذه المقولة هارولد تشيرنس Harold Cherniss انظر فى ذلك :

J.Barnes : early Greek philosophy, Penguin books, london. 1987, p.93.

(٢) خضعت كولوفون للسيطرة الفارسية عام ٥٤٦ ق.م راجع :

W.K.C. Guthrie : A history of Greek philosophy, vol 1, Cambridge, at the university press, 1962, p. 363.

التنويرى لينشأ فيها جيل جديد بفكر جديد.[٣]

وأضفى الشعر على كسينوفان ستاراً من الحماية جعله يمارس نشاطه التنويرى دون خوف من ملاحقة. فأخذ يتجول فى المدن اليونانية ينشد أشعاره التنويرية التى مزج فيها الشعر بالفلسفة. وأختار التعبير عن رسالته بالشعر لتصل أفكاره التنويرية إلى كافة اليونانيين؛ لأن النثر فى ذلك الوقت كان محلى اللهجة، أما الشعر فكان يستعمل آنذاك لهجة هوميروس التى تخاطب ويفهمها كذلك كل اليونانيين[٤]

نظم كسينوفان معظم اشعاره للسخرية من كل من يروج للقديم ولا ينتصر لسلطان العقل. وابتدع فناً جديداً فى الشعر لهذا الغرض هو "شعر السخرية" Silloi. ولم يكن كسينوفان مزدوج الشخصية : يتكسب عيشه من انشاد اشعار هوميروس وتملقه فى العلن فى حين ينشد أشعاره التنويرية فى الجلسات السرية كما اعتقد ذلك جومبرتس[٥]. إذ أن أشعاره مليئة بالتهكم اللاذع من هوميروس فلا يُعقل أن يكون راوية لأشعاره ويفعل ذلك به " بل إنه لو وجد إنسان فى بلاد اليونان جمعاء لا يتفق طابع شخصيته مع طابع الشخصية المزدوجة لكان كسينوفان هذا الشخص على حد وصف فرنرييجر[٦].

لقد كان كسينوفان بطلاً جسوراً متعصباً لرسالته الفكرية ومتحمساً للإصلاح. وقاد حركة التنوير الأيونية[٧]، جاعلاً هدفه تشييد صرح الفلسفة

---

(3) Th. Gomperz : Greek thinkers, Trans. by : L. Magnus, vol 1, John Murray, London, 1920, P.155.

(4) W. Jaeger : Paideia, Trans by : G. Highet, vol I, Oxford. 1948, p.169.

(5) Th. Gomperz : op cit, p.155.

(6) W. Jaeger : The theology of early Greek philosophers, at the clarendon press, Oxford, London, 1948, p.41.

(٧) نادى بوجود تنوير لدى كسينوفان J.Burnet : Greek philosoph , Macmillan Co 1td, London, 196, p. 109.

- W. Jaeger : The theology ...., p.54.

- K.R. Popper : "The unknown Xenophanes" an essay in : The world of Parmenides, ed by : A.F. Petersen., Routledge, London, 1998, p.33.

العقلية، وعلى يديه تحول العداء المستتر بين الفلسفة الأيونية وبين عالم الأساطير القديم إلى صراع مكشوف، ووجود كسينوفان فى طليعة التنوير القديم هو السبب -فى رأى كارل بوبر- فى وجود التيار المعادى له الذى يعمل على طرده من زمرة الفلاسفة. كان كسينوفان أقرب ما يكون للتنبؤ والتبشير بمبادئ التنوير الفرنسى فى القرن الثامن عشر. وهى مبادئ لا يمكن أن ترضى عنها طائفة المستفيدين من السلطة الدينية والسياسية التى عمل كسينوفان على هدمها فكان لابد من وصمة بالسطحية[٨].

فإذا ما تأملنا بعض التعريفات التى طُرحت "لفلسفة التنوير" وجدنا أن العمل الذى تقوم به هذه الفلسفة هو عمل مزدوج يتمثل فى إسقاط القديم البالى، وإحلال الجديد الراسخ محله. وهذا ما نلمسه فى تعريف كانط (+١٨٠٤) الشهير لها حيث قال " إنها تحرير الإنسان من عجزه من استخدام عقله من غير موجه خارجى، وهو عجز راجع إلى تردد هذا الإنسان وخوفه من إعمال عقله بدون موجه وليس إلى عدم وجود عقل لديه"[٩]. وكذلك فى تعريف هيجل (+١٨٣٠) لها "بأنها النظرة الذاتية إلى العالم والثورة المضاده على الدين من أجل الإرتداد من العالم الواقعى إلى الوعى الخالص."[١٠] فلم يكن الهدم إذن هو وحده شعار التنوير، بل الهدم من أجل إعادة البناء. ومن ثم صاغت فلسفة التنوير قديماً عند كسينوفان وحديثاً فى فرنسا ما يمكن أن يُعد ديانة جديدة تحل محل الديانة العتيقة التى تم تدميرها.

وسوف نتناول فيما يلى الجانبين السلبى والإيجابى من فلسفة التنوير لدى كسينوفان :-

---

(8) Ibid, pp. 34-35.

(9) Kant (A) : "What's the enlightenment" Trans by : P. Gay. in his book The enlightenment, Simon and Schuster, New York, 1973, p.384.

(10) Goldmann (L) : The Philosophy of the enlightenment. Trans by : H. Maas, Routledge & Kegan Paul, London, 1973. p.6.

[١] الجانب السلبى : (الهدمى)

شن كسينوفان هجماته النقدية العنيفة على كل أقطاب القديم الذين يكبلون العقل الحر بأغلال الخرافة، وتميزت هجماته هذه بالعمق والمباشرة والبساطة. فكان كسينوفان بذلك أول من وضع معياراً –فى تاريخ الفكر اليونانى– لما يكون "لائقاً" وما لا يكون فى اللاّهوت، ونادى بضرورة أن يقيّم كل شئ وفقاً له. أما سلطان التقاليد، أو سلطة الشعور العام، أو سلطة المعلم فلم يعد يولى لها أى اهتمام.

ولا شك أن الأسباب التى دفعت كسينوفان إلى ذلك كانت –كما يبرزها جومبرتس–[١١] أشكال المعاناه التى مر بها كسينوفان فى شبابه حيث تهاوت أيونيا أمام عينه تحت السيطرة الفارسية، ثم المعرفة الواسعة بمعتقدات وعادات الشعوب المختلفة التى اكتسبها على مدى سبعين عاماً قضاها فى التجوال، مما عزز فى نفسه روح النسبية والشك فى صدق التقاليد والأعراف الشعبية خاصة المتعلقة بالدين. وكذلك ما كان لدى كسينوفان من مُثل أخلاقية ونوازع فطرية سامية ترفض ما يتعارض معها. أضف إلى ذلك تأثره بالثقافة العلمية المادية فى عصره. وهناك سبب آخر ذكره بوبر هذه المرة هو الروح النقدية التى كانت شائعة فى الفكر الفلسفى الأيونى. لقد كانت المدارس الأيونية تشجع النقد بين المدارس المختلفة بل وكذلك داخل المدرسة الواحدة[١٢]. فتشرب كسينوفان هذه الروح النقدية واستخدمها سلاحاً فى فلسفته التنويرية هذه.

لم يهاجم كسينوفان فى الجانب السلبى من فلسفته التنويرية سلطة هوميروس وهزيود الدينية فحسب، بل وعارض أيضاً طاليس وأنكسيمنيس وفيثاغورس، وهاجم بعنف المجتمع الأرستقراطى المترف بما يموج به من فساد وبذخ. ولم يترك شيئاً يتعارض مع رسالته إلا وهدمه كما سوف نرى :

---

(11) Th. Gomperz, : op cit, p.163.

(12) Sir. K.Popper : "back to the presocratics," an essay in : Studies in Presocratic Philosophy, Ed by : D.J. Furley, & R.E. Allen, vol 1, Routledege & Kegan Paul. New York, p.149.

(أ) الهجوم على التصور التقليدى للألهة :

كان الدين يلعب دوراً محورياً فى الحياة اليونانية فى عصر كسينوفان، وكانت قصائد هوميروس وهزيود الأساس الذى تقوم عليه التربية آنذاك. فشعر كسينوفان أنه بهدم الأساطير الدينية التى تمسك برقاب الناس وعقولهم، سوف ينجح ما يستهدفه من تنوير. فكان كسينوفان أول من فجر النزاع بين الفلسفة وبين الدين بشكل صريح. وإذا كانت الفلسفة الأيونية قد أحلت التفسير الطبيعى العقلى للأحداث محل تصور هوميروس الأسطورى للكون. فقد أثار ذلك كسينوفان فأحس أنه لكى يسود هذا التفسير العقلى سيادة تامة لابد من إقصاء مجمع الأوليمب المشتمل على الألهة المجسمة المتكثرة. ولم يكن هجومه على هوميروس لعداوة بينهما وإنما لتكذيب ما يقوله من أساطير عن الألهة، كما يصرح ديوجين لايرتوس(١٣).

اختص كسينوفان هوميروس وهزيود بالسيل الأكبر من هجماته النقدية، فقد كانا فى رأيه المسئولين الأساسيين عن الصورة المشينة التى لحقت بالآلهة فى الأذهان. ولا مبالغة فى ذلك فقد كان هوميروس وهزيود اللذين علما اليونان أجمع معظم تصوراته عن الآلهة كما عبر كسينوفان عن ذلك.(١٤) ولم يرحم كسينوفان أحداً أساء إلى الكمال الإلهى من سخريته دون أى خوف من سلطة هذا المفكر الروحية أو الشعبية.

كانت طهارة الإله وكماله الأخلاقى الشيئين اللذين حافظ عليهما كسينوفان. وما كان أشد سخطه على الشاعريين المفترض فيهما أن يكونا العين الساهرة على صلاح الأمة اليونانية فقاما بدلاً من ذلك بخداعها وتعليمها ما لا ينبغى أن يُعلم عن ألهتها من كذب وإفتراء لا يليق. ولم يملك كسينوفان نفسه من الصياح "لقد نسب كل من هوميروس وهزيود إلى الألهة كل الأشياء التى تبعث

---

(13) Diogenes Laertius : Lives of eminent Philosophers, Trans by : R.D. Hicks, vol 11, Harvard University Press, 1972, IX, 18, p.425.

(14) Fr. 10 in : J. Burnet : early Greek Philosophy, 4th ed, Adam & Charles Black. London, 1975, p.119.

الخجل والاحتقار بين البشر كالسرقة والفسوق وخداع الواحد منها للآخر"[١٥].

تغيب الإستقامة الأخلاقية الواجب تمتع الإله بها تماماً من التصورات الدينية التى يقدمها هوميروس وهزيود. وكان هذا هو الجانب الأول الذى هاجمه كسينوفان فى أشعارهما الدينية. أما الجانب الثانى الذى يهاجمه كسينوفان عندهما فهو التصوير التجسيمى للإله Anthropomorphism. إذ أمن كسينوفان أن الإله الحق لا يشبه أحداً من البشر على الإطلاق. فلأنه موجود كامل والبشر ناقصين، فمن الإساءة للإله خلع الصفات البشرية التجسيمية عليه. فهذا ما لا يتناسب مع الكمال الإلهى. وسخر كسينوفان من النزعة التجسيمية هذه فى العديد من أشعاره مثل قوله "يتصور البشر الألهة مولودة وترتدى ثياباً مثل ثيابهم، ولها صوت مثلهم وصورة كصورتهم." (fr14) وكذلك قوله "نعم وحتى لو كان للثيران والأفراس والأسود أيدى، وكان بإمكانها أن ترسم بها كما يرسم البشر، فسوف ترسم الأفراس صورة الألهة على صورتها، والثيران على صورة ثيران، وكل جنس سوف يجعل أجسام الألهة على صورته وهيئته الخاصة،" وقوله " يجعل الأحباش Ethiopians ألهتهم سود البشرة فطس الأنوف، ويجعلها التراقيون Thracians ذرقاء العين حمراء الشعر."[١٦]

ولم يهاجم كسينوفان فى أشعاره السابقة الأوصاف البشرية الباطلة للألهة لدى الشعراء، بل وهاجم بعنف ما كان لديهم من رواسب للعقيدة الطوطمية التى تخلع أشكال الحيوانات والطيور على الآلهة. وقد ظهرت هذه الرواسب فى نعت هوميروس للألهة "أثينا" بأن لها وجه بومة وللألهة فيرا " بأنها صاحبة وجه بقره. وتصوير الإله بصورة إنسان فى رفقته طائر أو حيوان صديق له أو رمز له[١٧]. والواقع أن هجمات كسينوفان على نزعة التجسيم الشائعة فى لاهوت

---

(15) Fr. 11, 12 in : J.Burnet, op cit, p.119.

(16) Fr. 14,15,16 in : Ibid.

(١٧) س.م. بورا : التجربة اليونانية ، ترجمة د/ أحمد سلامة محمد. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٧٩.

هوميروس "لا تفضح عيباً خطيراً فيه فحسب، بل وتجسد واحدة من أعظم حجج الالحاد أهمية فى وجه الدين إياً كان : إنه القول بأن المبتدع الحقيقى للإله هم البشر الذين يصورون الألهة على صورتهم وليس العكس هو الصحيح[١٨]. وبعد ستة عشر قرناً من الزمان سخر سبينوزا (+١٦٧٧) من النزعة التجسيمية مثلما سخر منها كسينوفان فقال " أعتقد أن المثلث لو امكنه التعبير عن نفسه لصرح بأن الله مثلث الشكل ... وهكذا كان كل واحد قد وصف الله بصفاته الخاصة". وكم كان فولتير (+١٧٧٨) موفقاً فى سخريته القائلة " لقد خلق الله الإنسان على صورته ، فما كان من الإنسان سوى أن أجاب برد الجميل.[١٩]"

فإذا كان كل جنس يبتدع صورة الإله على صورته هو الخاصة، فالنتيجة المترتبة على ذلك هى أن كل هذه التصورات ذاتية وغير معبرة عن حقيقة الألوهية الكاملة، ومن ثم يجب اسقاطها جميعاً فى رأى كسينوفان، واسقاط كافة النتائج المترتبة عليها مثل القول بإن الألهة مولوده؛ فقد اعتاد كسينوفان التأكيد -كما يذكر أرسطو- على أن القول بأن الألهة مولودة لا يقل إلحاداً فى شيء عن القول بإنها تموت إذ يترتب على الأمرين أن هناك وقتاً لم تكن توجد فيه هذه الألهة.[٢٠]" علاوة على أن القول بميلاد الإله وفناءه يتعارض مع كونه الأفضل والأسمى بين الجميع. وقد روى أبيخارموس (+٤٣١ق.م) Epicharmus ذلك. "فالميلاد مرفوض لأن الإله المولود يجب أن يكون قد ولد من شئ آخر أفضل منه، وكذلك الوفاة مرفوضة لأنها تتضمن أن هناك شيئاً يكون أفضل من الإله يجبره على الخروج إلى الوجود.[٢١]" وكم سخر كسينوفان

---

(18) A.S.Bogomolov : History of ancient philosophy, trans by : V.Stankeich, progress publishers, Moscow, 1985, p.79.

(١٩) هنرى توماس : أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم. ترجمة / مترى أمين ، مراجعة / د.زكى نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص٧١.

(20) Aristotle : Rhetoric, trans by : D. Ross, in "Great books of the western world, vol 9, B II, ch23, 1399b 6-9, p.648.

(21) J. Barnes : The presocratic philosophers, vol 1, Routledge & Kegan paul, London, 1982, p.86.

من المصريين الذين ينتحبون على موت الإله أوزريس Osiris ومن اليونانيين الذين يبكون على موت الألهة لوكوثيا[٢٢] Leukothea طالباً منهم أن يختاروا إما البكاء على هذه الموجودات باعتبارها بشر فانية فقط، وإما أن يعبدوها العبادة الحقة بوصفها آلهة خالدة لا تموت ويمسكون عن البكاء.[٢٣]"

ويشير "جثرى" إلى جانب آخر من جوانب هجوم كسينوفان على التجسيم. فإلى جانب هجماته على الآلهة ذات الأشكال البشرية، ومن الألهة ذات الأشكال الحيوانية، فإنه يسخر أيضاً من الألهة ذات الأشكال النباتية[٢٤] Vegetable Form وكان يقصد الديانة الباخية التى تجعل "باخوس" يحل فى جسد عابده من البشر وكذلك فى أفرع الأشجار فقال كسينوفان متهكماً من ذلك "الباخية هى أشجار السرو التى تلتف حول بهو متين البنيان وليس أكثر من ذلك.[٢٥]" لقد كانت نزعة التجسيم فى الديانة التقليدية فى رأى كسينوفان "محاولة غير مشروعة لرفع صورة من صور المتناهى فى الموضع الذى يجب أن يُترك للمطلق. وطموح الإنسان وغروره الحقير هما اللذان يجعلانه يعتقد أن الإله على صورة بشرية. يقابل المطلق المتناهى ولا يمكن أن يحل محله.[٢٦]"

هناك جانب آخر يترتب على هجوم كسينوفان السابق على التجسيم ذكره ديوجين لايرتوس يقول "أنكر كسينوفان تنفس الإله"[٢٧] فطالما أن الإله لا

---

[٢٢] لوكاثيا : زوجة أثاماس الثانية ملك طيبة، وقد غضب عليها زوجها لمعاملتها القاسية لأبناءه من الزوجة الأولى فأغرقها فى اليم مع إبنها، راجع : ب.كوملان : الأساطير الإغريقية والرومانية، ترجمة : أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص١٠١.

(23) Aristotle : Rhetoric, B.II, ch. 23, 1400b5, p.649.

(24) W.K.C. Guthrie : op cit, p.372.

(25) Fr. 17, in : J.Burnet : op cit, p.119.

(26) E. Caird : The evolution of theology in the Greek philosophers, vol 1, Glasgow Maclehose, Jackson, 1923, pp.61-62.

(27) Diogenes Laertius : op cit, 1X, 19, p.427.

يشبه البشر لا فى الجسم ولا فى العقل، فليس له رئتين مثلهم. كما أن من جوانب رفض كسينوفان لنزعة التجسيم إنكاره لحركة الإله. فطالما أن الإله ليس جسماً فإنه لا يتحرك " إذ يحكم الإله الأشياء جميعاً إعتماداً على قوة عقله وليس بالاعتماد على أى وسيلة أخرى، وهو قائم دائماً فى مكان واحد لا يتحرك على الإطلاق، إذ ليس من اللائق للإله أن ينتقل هنا وهناك.[٢٨]" ولا شك أن كسينوفان استهدف بذلك آلهة هوميروس، فليس الإله بحاجة إلى أن يهز رأسه لكى يحرك الأشياء ويسيرها كما كان زيوس عند هوميروس[٢٩]. فالإله الحق لا يحتاج ولو حتى إلى الإيماء برأسه. وإذا كانت آلهة الأوليمب دائماً ما كانت تهبط من عرشها لتتدخل فى سير الأحداث على الأرض، فإن الإله الحق يجب أن يظل فى مكانه ثابتاً دائماً[٣٠]. يسير جميع الأشياء بقوة عقله فقط لا يحتاج إلى أى أعضاء حسية. وكان مبرر كسينوفان لإنكار الحركة عن الإله "أنه ليس من اللائق منطقياً أن يتحرك الإله وينتقل هنا وهناك. بل إن الحركة ليست غير لائقة فحسب للإله، بل ولا حتى لازمة له أصلاً من الناحية المنطقية طالما أنه يحوى الجميع بقوة عقله.[٣١]" وهناك من يرى أن قول كسينوفان "إن الإله يحرك الأشياء جميعاً بقوة عقله فقط يمثل تطوراً جسوراً لفكرة هوميروس القائلة بإمكان الإله أن يصل إلى غايته بمجرد غرس " الوجد" مثلاً فى نفس الإنسان.[٣٢]"

لا يجب أن يُوصف الإله عند كسينوفان من ثم بأى إنحرافات أخلاقية

---

(28) Fr.26, in : J.Burnet : op cit, p.120.

(٢٩) وقد ترجم "كارل رينهارت" الشذرة فعلاً بهذا المعنى "يهز جميع الأشياء بقوة عقله" وإن كان كارل بوبر يعترض على هذه الترجمة لتعارضها مع توجيهات كسينوفان نفسه. راجع :

K.R. Popper : The unknown Xenophanes, p.60.

(30) W.K.C. Guthrie : op cit, p.374.

(31) J. Barnes : The presocratic philosophers, p.85.

(32) G.S.Kirk & J.E. Raven : The presocratic philosophers, Cambridge, at the University press. 1963, p.170.

كتلك التى كان يوصف بها زيوس، ولا بأى وصف بشرى، ومن ثم فإن اتهام جومبرتس لكسينوفان بالوقوع فى تجسيم لا يختلف شيئاً عن الذى يهدمه، وأن قوله "ليس من اللائق للإله أن ينتقل هنا وهناك" تجسيم عظيم لأنه لا يعنى أكثر من أن رئيس الألهة لا يجب أن يتنقل جيئة وذهاباً مثل إنسان بائس، بل يجب أن يتحلى بالفخامة لملك جالس على عرشه.(٣٣)" إتهام مبالغ فيه، إذ لم يكن كسينوفان يعنى الجلوس بالمعنى الحرفى، وإنما كان يقصد نفى التجسيم ولاواحقه عن الإله، وضرورة أن يؤخذ كلامه بالمعنى التنزيهى. ولا شك أن فرنر بيجر قد انتبه إلى هذا الفارق عندما " اعتبر مفهوم الثبات الإلهى لدى كسينوفان تبشيراً بفكرة المحرك الأول عند أرسطو.(٣٤)"

كما هاجم كسينوفان بعنف ما كان شائعاً لدى معاصريه من تأليه للنجوم والأجرام السماوية والصلاة لها. فأعلن أن هذه الأشياء مجرد حجارة نارية مختلفة الألوان كما سوف يصرح بذلك فيما بعد انكساجوراس. وأنها تخلو من أى مظهر إلهى. فأعلن صراحة "أن الشفق الأحمر ذلك الذى يسمونه الألهة إيريس Iris هو (أيضاً) مجرد سحابة أرجوانية وقرمزية وخضراء اللون.(٣٥)" وقال عن "نار القديس ألمو" St-Elmo's fire "إنها ظاهرة طبيعية تشبه النجوم وتظهر على السفن عند العواصف(٣٦)" ولا يُستبعد أن يكون كسينوفان –كما تقول فريمان– قد نظر إلى الشمس والقمر والنجوم الأخرى من هذا المنظور، إذ يذكر البعض أن كل هذه الأشياء فُسرت عنده على أنها "سحب تشتعل بفعل الحركة ودائماً ما تتجدد بشكل مستمر.(٣٧)" كما أنه تحدث بازدراء عن القمر واعتبره شيئاً زائداً عن الحاجة. ويستنتج جون بيرنت من كلمة "أيضاً" فى نص الشفق

---

(33) Th. Gomperz : op cit, p.159.

(34) W. Jaeger : The theology of early Greek philosophers, p. 45.

(35) Fr. 32, in : J.Burnet, op cit, p.121.

(36) W.K.C. Guthrie : op.cit, p.393.

(37) K. Freeman : The presocratic philosophers, 2nd ed, Basil Blackwell, Oxford, 1959, p.98.

الأحمر نفس النتيجة السابقة التى توصلت إليها فريمان آنفاً.(٣٨)" ولا شك أن كسينوفان كان يهدف من كل ذلك تقديم تفسيرات عقلانية جديدة للأجرام السماوية وإدانة الألهة المجسمة، وليس تقديم نظرية علمية كاملة عن الأجرام السماوية.(٣٩)"

ومما رفضه كسينوفان فى الديانة التقليدية فى الشق السلبى من فلسفة التنوير لديه وجود تعدد ومستويات متفاوتة من الألوهية، واعتمد فى رفضه لها على إيمانه الراسخ فى الكمال الإلهى، فالإله الكامل يجب أن يكون مكتفياً ذاتياً (٤٠). إن من التجديف القول بأن هناك رئاسة بين الألهة، فليس من اللائق للكمال الإلهى أن يكون الإله خادماً لآخرين(٤١).

ورغم شيوع العرافة والكهانة فى عصر كسينوفان ورسوخها بين مواطنيه، هاجمها كسينوفان بشدة وأنكر صدق الكهان ودعى إلى الابتعاد التام عنهم، فلا فائدة ترجى منهم وقد ذكر شيشرون أن كسينوفان "كان الفيلسوف الوحيد بين القدماء الذي آمن بالألهة وفى الوقت نفسه أنكر الكهانة.(٤٢)" وكم سخر كسينوفان من العراف "إمينيدس" Epimenides (مات فى أوائل القرن الخامس ق.م) ذلك الذى كان يحظى بشهرة واسعة كنبى يأتى بالمعجزات(٤٣). ورفض كسينوفان لصدق الكهانة مرتبط بشدة بمفهومه التنزيهى للإله. إذ لا يشبه الإله لديه البشر لا فى الجسم ولا فى العقل، ومن ثم فلا يتحدث إلينا حديثاً

---

(38) J. Burnet : op cit, p.121.

(39) J. Barnes : The presocratic philosophers, vol 1, p.96.

(40) M.C. Stoke : One and many in presocratic philosophy, The trustees for Harvard University, 1971, p.80.

(41) J.Burnet : op cit, p.128.

(42) F.M. Cornford : Greek religious thought, J.M. Dent & sons ltd, London, 1950, p.86.

(43) J.H. Lesher : "Xenophanes' scepticism," an essay in : essays in ancient Greek philosophy, ed by : J.A. Anton, & A. Preus, vol 11, state university of New York press, 1983, p.26.

مباشراً. كما أنه ليس من اللائق للإله أن يأتى إلينا أو يظهر بيننا، ومن المستبعد كذلك حدوث الحلول الإلهى فى نفس النبى أو العراف(٤٤). والواقع إن ليشير S.lesher يفهم قول كسينوفان "وحتى ولو حدث ونجح أمرئ قبل الجميع فى وضع يده على الحقيقة" فى الشذرة ٣٤ التى سوف نستعرضها فيما بعد بأنه يتضمن فى جوهره هجوماً على الكهانة ومعناه "حتى لو نجح أمرئ وتنبأ بما سوف يحدث قبل الجميع يظل فى قراره نفسه غير عارف بالحقيقة، لأن الظن هو حده المتاح حول الأشياء جميعاً.(٤٥)"

ويقيم كسينوفان بهجومه هذا على الكهانة فجوة لا يمكن عبورها بين وضعنا نحن على الأرض وبين العالم الإلهى المفارق. فجوة عبر عنها من قبل عندما قال بإله واحد لا يشبه البشر بأى حال(٤٦). ولا شك أن التفسيرات العلمية والطبيعية التى قدمها كسينوفان لصور التطير والكهانة فى عصره مثل "قوس قزح" و "نار القديس إلمو" قد قلصت من الإيمان بصدق الكهانة وجعلتها مجرد خرافة بالية(٤٧). واعجاب كسينوفان بما قام به "طاليس" من تنبؤ بظاهرة كسوف الشمس لا ينم عن تناقض من جانبه، فما أعجب به كسينوفان هنا هو مهارة طاليس فى التقدير وليس مهارته فى التنبؤ (٤٨). وهجوم كسينوفان على العرافة كان ثوريا لأنه رفض جانباً كان أساسياً فى الديانة اليونانية، ولعادة كان متأصلة فى نفوس معاصريه.

وإلى جانب هجوم كسينوفان السابق على التجسيم يهاجم ما يوجد فى قصائد هوميروس وهزيود من حكايات أسطورية عن أشكال التعذيب الشنيعة

---

(44) Ibid, p.27.

(45) H.Fränkel : "Xenophanes' empiricism,"an essay in : The presocratics, ed by : A.P. Mourelatos, Anchor books, New York, 1974, p.130.

(46) J.H. Lesher : op cit, p.29.

(47) Ibid. p.27.

(48) Ibid. p.39, N.32.

التى تنتظر البشر فى الأخرة، فيما أسماه هزيود "التارتار" Tartarus وتوجد أسفل أرضنا، فأنكر كسينوفان أى شئ من هذا وقال "إن السطح الذى نراه يمتد أسفل أرجلنا ويلامس الهواء هو الحد الأعلى للأرض، أما حدها الأسفل فيمتد إلى ما لانهاية [٤٩]. فهذا الإمتداد إلى ما لا نهاية إلى أسفل يقضى تماماً على وجود عالم العذاب أسفلها[٥٠]. أما امتداد الهواء إلى أعلى إلى ما لا نهاية فيقضى -كما يفهم ذلك بيرنت- على السماء Ouranos الذى كان إلهاً أساسياً فى أنساب الآلهة القديمة[٥١]. فلم يكن أبيقور إذن ولا حتى ديقريطس أول من جعل واجب الفلسفة الإستعانة بالعلم لإنقاذ البشرية من رهبة الألهة سواء منها المقيمة أسفل الأرض أو فوق فى السماء. بل كان كسينوفان هو أول من قام بذلك كما رأينا.

وكان الجانب الأخير الذى هاجمه كسينوفان فى التصورات الدينية التقليدية هو الإيمان بأن العصر الذهبى للبشرية كان خلفها عندما كانت تعيش فى نعيم شيدته لها الألهة، أما كسينوفان فقال بالعكس فهناك تقدم متواصل يحرزه البشر، وكل الاكتشافات العظيمة التى سهلت حياة الإنسان من إبتكار البشر وحدهم. وكم كان كسينوفان معبراً عن ذلك عندما قال "لم توح الألهة بكل شئ منذ البداية إلى البشر، وإنما يصل البشر إلى ما يكون الأفضل من خلال البحث الجاد وعلى مرور الوقت.[٥٢]" ومن ثم لم يكن أدوار زيللر مبالغاً عندما قال "إن كسينوفان بذلك كان أول أنثروبولوجى فى الفكر اليونانى.[٥٣] وكان أول -كما يقول فرنكل- مفكر يونانى يوضح فى مفاهيم بالغة الدقة والوضوح فكرة التقدم، ويسخر سخرية مرة من المفهوم التقليدى عن الحضارة باعتبارها هبة إلهية[٥٤].

---

(49) Fr.28, in : J.Burnet, op cit, p.120.

(50) G.S. Kirk & Raven : op cit, p.175.

(51) J.Burnet : early Greek philosophy, p.125.

(52) Fr.18, in : J.Burnet : op cit, p.119.

(53) E. Zeller : outlines of the history of Greek philosophy, trans by : L.R. Plamet, 13th ed, Dover publications, New York, 1980, p.44.

(54) H.Fränkel : Xenophanes' empiricism, p.121.

هكذا تهكم كسينوفان من كل ما فى اساطير هوميروس وهزيود من تناقضات وسخافات، تهكم يكشف عن عبقرية فذة وحرارة صادقة. والواقع أن كسينوفان لم يكن ملحداً، يهدف تقويض الدين، بل كان مؤمناً بإله جديد غير تلك الألهة المجسمة. وأراد أن يضع إيمانه هذا محل الأساطير التى هدمها. وكان كسينوفان يوصى فى جلساته الخاصة بعبادة الآلهة وتمجيدها التمجيد الحق. وبالابتعاد التام عن سرد الأساطير المختلقة عن التيتان والعمالقة تلك التى كان هوميروس أكبر مروج لها(٥٥). وهو بهذا يوجه -كما يقول جومبرتس- لطمة عنيفة وخطيرة إلى الاعتقاد فى هذه الأساطير قائلاً عنها إنها من إبتداع القدماء وليست من وحى الآلهة ولا توجد أى فائدة منها(٥٦). فليس من الغرابة فى شئ إذن أن ينظر البعض إلى كسينوفان على أنه فيورباخ Feuerbach (+١٨٧٢) العصور القديمة. إذ نظر إلى التصورات الدينية القائمة على أنها إبتداعات بشرية(٥٧)".

إنطلق كسنيوفان فى هجماته التنويرية السابقة مما يمليه العقل والمنطق عليه، وإنتهى من هجومه على التجسيم إلى أن كل جنس من الأجناس يؤله نموذجه الخاص. أما الأله الحق فالاله عالمى للجنس البشرى كله. وكسينوفان بذلك يمثل ثورة فكرية، قُدر له أن يغير مسار الفكر اليونانى، إيماناً منه -كما يقول ييجر- أن الشاعر هو المعلم الحقيقى -بل والوحيد- للأمة، وأن عمله هو المسئول مسئولية حقيقية عن التربية(٥٨).

وقد أخذ العالم الأسطورى القديم يتهاوى شيئاً فشيئاً أمام ضربات معول كسينوفان التنويرى، وحل قوله بالإله الواحد محل هذه الديانة العتيقة. فكان كسينوفان بذلك يمثل المرحلة الميتافيزيقية حسب تقسيم أوجست كونت (+١٨٥٧)

---

(55) Fr.1, in : J.Burnet, : op cit, p.117.

(56) Th. Gomperz : op cit, p.163.

(57) K.F.Johansen : a history of ancient philosophy. trans by : H.Rosenmeier, Routledge, London, 1998, p.45.

(58) W.Jaeger : The theology of the early Greek philosophers, p.42.

لمراحل تطور الفكر البشرى- التى تعقب المرحلة الأسطورية، وهى تمثل البوتقة التى يذوب فيها الشعور الأسطورى ويختفى تماماً لتظهر التصورات الميتافيزيقية، ثم تختفى هذه بدورها وتحل محلها المرحلة الوضعية. مرحلة سيادة العلم سيادة تامة.

(ب) الثورة على التقاليد الاجتماعية البالية :-

تضافرت عدة عوامل -فيما يبدو- معاً فجعلت كسينوفان حانقاً على مجتمعه الإرستقراطى المترف، وبثت فيه روح النقد والثورة على ما يتضمنه هذا المجتمع من عادات وتقاليد فاسدة، فمن المحتمل أن إنحدار كسينوفان من أصل فقير مما أجبره على تكسب عيشه بإنشاد الشعر، جعله حانقاً على المظاهر الأرستقراطية فى المجتمع المحيط به، علاوة على سياحته الطويلة فى شتى أرجاء العالم اليونانى، جعلته يقف على ما يموج به هذا العالم من صور اللهو العبث.

يعيب كسينوفان على المجتمع الذى يعيش فيه ما يعج به من مظاهر البذخ. فنجده يوصى فى شذرة له بالإلتزام بالاعتدال. ويأخذ على معاصريه ما يغرقون فيه من عبث ولهو غير نافع تعلموه من "الليديين" مثل السير فى خيلاء مرتدين الثياب المزركشة الطويلة، صاخبة الألوان، عليها كميات هائلة من الروائح الباهظة، وإطالة شعورهم بشكل غير معقول[٥٩]. واعتبر أن مثل هذه الأشياء تنشر روح الهشاشة المخنثة وتقضى على الرجولة. فيضعف المجتمع ويقع تحت نير الطغيان. ولسنا نستبعد أن يكون كسينوفان قد لام معاصريه على ذلك معتبراً "إن لهوهم وترفهم هذا سبب ما تعرضوا له من إحتلال فارسى.

إتخذ كسينوفان من منفعة المجتمع ورقيه معياراً يحكم من خلاله على التقاليد والعادات الاجتماعية القائمة. فيسمح بتلك التى تسهم فى رقى المجتمع ويحارب تلك التى تتعارض معه. وهو معيار تنويرى فى المقام الأول. وقد استعمله فى محاربة البذخ الأرستقراطى، وكذلك فى الهجوم على ما كان لدى

(59) Fr.3, in : J.Burnet, op cit, p.118.

معاصريه من هوس رياضى.

كانت المدن اليونانية آنذاك تقدس الأبطال الرياضيين، وكثيراً ما كانت توصف الآلهة فى الأشعار بصفات بطولية رياضية. وكان الفوز فى إحدى الألعاب الأولمبية يضفى على صاحبه أمجاداً لا حد لها، لأنه إقترب -كما كان يظن اليونانيون- من الآلهة وحقق الكمال فى جسمه[٦٠]. فجاء كسينوفان فاعتبر هذا التقديس والتمجيد شيئاً لا يجب؛ لأن هؤلاء الرياضين لم يقدموا أى فائدة للمدينة، إذ ما الخير -كما يقول- الذى سوف يعود على المدينة لو كسب أحد مواطنيها لعبة رياضية؟؟ لن يجعل هذا المدينة محكومة حكماً أصلح مما كان، ولن يجعل منازل المدينة الفقيرة غنية على الإطلاق".[٦١] ويقول "إنها لعادة اجتماعية بالية ومرذولة، فليس من الصواب تفضيل القوة البدنية على الحكمة العقلية النبيلة. تلك التى تستحق التبجيل لأنها تسهم فى إصلاح المجتمع." ويذكر جثرى أن هذا هو نفس ما نادى به طاليس من قبل، وإنه كان يحمل عداءً للأرستقراطية وتبشيراً بالصدام المحتوم بين المثل العليا القديمة وبين الفلسفة الوليدة بطابعها الإنسانى الديمقراطى بل والثورى أيضاً. [٦٢]

إننا نشاهد فى قصيدة كسينوفان عن الألعاب الرياضية بشكل أوضح من أى موضع آخر فى تاريخ الحضارة اليونانية -فى رأى فرنر ييجر- المثل الأعلى الفلسفى الجديد للإنسانية والذى سعى إلى تجريد الثقافة الأرستقراطية من قوتها ومكانتها فى النظام الاجتماعى. وكان جوهر الصراع بين الإثنين : أيهما أفضل الرياضة أم الفكر؟ وبعد زمن ليس بالطويل كُتب النصر للجديد على أسوار القديم، وانهارت السيادة المطلقة للمثل الأعلى الرياضى. [٦٣] ولا شك أن

---

[٦٠] لمراجعة تفاصيل أكثر عن غرام اليونانيين بالأبطال الرياضين راجع :
س.م. بورا : التجربة اليونانية، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(61) Fr.2, in : J.Burnet : op cit, p.117.

(62) W.K.C. Guthrie : a history of Greek philosophy, vol 1, p.364.

(63) W. Jaeger : Paideia, vol 1, p.173.

كسينوفان كان سوف تتملكه الدهشة الشديدة حقاً من أننا بعد ألفين وخمسمائة عام نعرفه وندرس فكره فى حين لا يتذكر أحد منا الفائزين فى الألعاب الأولمبية فى عصره. (٦٤)

لا يقل شيئاً بغض كسينوفان لعبادة قوة البدن البشرى عن بغضه الذى رأيناه للصور البشرية للإله. وقد وضع محل عبادة الجسد هذه إيماناً جديداً فى قوة المعرفة العقلية، فهى التى تبدع العدالة والنظام للمدينة. فكانت قصيدته هذه -فى رأى بيجر- أول تأكيد على الفضيلة العقلية الجديدة واكتشفت الفلسفة فيها قوتها الذاتية وأهميتها للجنس البشرى، وتم فيها عبور الفجوة الفاصلة بين البحث النظرى عن الحقيقة وبين نقد وإصلاح الحياة البشرية."(٦٥)

ومن الأمراض الاجتماعية المزمنة التى حاربها كسينوفان فى معاصريه إدمان السكر والإنغماس فى الشراب. حيث حرم السكر وأوصى بالإقلال من الخمر. وتصوره شذرة له جالساً على مائدة الشراب يوجه أصدقائه إلى الإعتدال فى الشراب، وأن يحرص الواحد منهم بأن يشرب بالقدر المعقول الذى يمكنه من العودة إلى المنزل دون مساعدة من أحد، ويظل متزناً لا يهذى بأى كلام.(٦٦)

وإلى جانب حب كسينوفان للديمقراطية والإعتدال عشق الحرية وبغض الطغيان. إذ يروى "ديوجين لايرتوس" أنه أوصى بالإقلال من الكلام والتلاقى مع الطغاه قدر الإمكان. فإذا ما تحدثنا معهم يجب أن يكون الكلام قليلاً وسريعاً.(٦٧) والواقع أن القصائد المنحدرة من كسينوفان تكشف عن تمتعه بمكانة سياسية واجتماعية تسمح له بتوجيه هذه الانتقادات الإصلاحية إلى المحيطين به دون خوف. كان جسوراً، أدار قلبه وظهره تماماً للتقاليد غير النافعة.

---

(64) K.R. Popper : The unknown Xenophanes, p.59, N22.

(65) W. Jaeger : op cit, p.174.

(66) Fr. 1, in : J. Burnet, op cit, p.117.

(67) Diogenes Laertius : op cit, vol. II, 1X, 30, p.427.

(جـ) نقد المذاهب الفلسفية السابقة :-

امتد كسينوفان برسالته التنويرية إلى مذاهب الفلاسفة السابقين عليه التى لم تعد تتمشى مع هذه الرسالة. وكان محور الاختلاف بين كسينوفان وبينهم -فى رأى هيرمان فرنكل- أنه بينما ذهب الطبيعيون الأوائل إلى ما هو أبعد من السطح الخارجى للطبيعة، واعتقدوا فى وجود جوهر مفارق خلف كل أفعال الطبيعة، قدم كسينوفان صورة للعالم تتميز فى جملتها بالبساطة، وتسقط كل تفسير للعالم يتجاهل دائرة الإحساس المباشر. وظل كسينوفان قريباً بأقصى ما فى استطاعته لما هو حاضر أمامه.(٦٨)

عارض كسينوفان طاليس وأنكسيمنيس حيث يقول فى شذرة له "إن سطح الأرض السفلى يمتد إلى ما لا نهاية وكذلك سطحها العلوى". وهو ينحاز فى هذا إلى جانب اللامتناهى الذى قال به أنكسميندر وعارض المتناهى الذى قال به طاليس وأنكسيمنيس.(٦٩) حيث يرفض النظرية القائلة إن الأرض تطفو فوق الماء (طاليس) أو فوق الهواء (أنكسيمنيس). ويقرر كسينوفان إن القول بمحدودية الأرض وإنها محمولة فوق الماء أو غيره قول باطل؛ لأنه سوف يثير سؤالاً : وما الذى يحمل الماء أو الهواء بدوره ؟ وسوف يجعلنا هذا ننتهى إلى عملية إرتداد لا نهاية لها كما يعلق كارل بوبر.(٧٠) ومن ثم فالأرض تضرب بجذورها فى اللانهائية. وقد سخر أرسطو من ذلك بقوله "إنها نظرية تعفى القائلين بها من مشقة البحث وإيجاد السبب الحقيقى فى ذلك."(٧١)

إذا كان كسينوفان قد انطلق من فلسفة أنكسيمندر فى هجومه على طاليس وأنكسيمنيس فإنه لا ينطلق منها ليؤيدها، وإنما ليعارضها. فإذا كانت

---

(68) H. Fränkel : op cit, p.118.

(69) Fr. 28, in : J.Burnet, early Greek Philosophy, p.120.

(70) K.R. Popper : The unknown Xenophanes, p.37.

(71) Aristotle : De caelo, trans by : J. L. Stock, the works of Aristotle,
vol II, Oxford, 1947, B 11 ch 13 , 294a21.

الطبيعة عند أنكسميندر مؤلفة من شئ ليس له صفة سوى أنه القوة اللامتناهية للتغيرات الظاهراتية فى الكون والفساد، فإنها لا توجد سوى لأجل هذه التغيرات، فالثابت بهذا ينحل إلى المتغير، والواحد إلى المتكثر. أما كسينوفان فقال بالعكس تماماً. حيث تصور الطبيعة ككل واحد ثابت كروى. وأنكر حدوث التغير حدوثاً فعلياً، فهذه العمليات من الكون والفساد مجرد تحورات فحسب فى المظهر الحسى.(٧٢) اختفى التعدد عنده، إذ اكتشف قصور المفهوم الملطى عن المادة الأولى، ونادى بضرورة البحث خلف ما يحدث للأشياء الجزئية من تغير عن مبدأ كونى يكمن خلفها جميعاً ويظل ثابتاً.(٧٣) وأنكر أن يكون هناك مصدر أول للكل، بل الكل عنده غير مولود، وممتد إلى ما لا نهاية. وكان هذا إرهاصة بقول أرسطو بقدم العالم. أما ما يحدث من ميلاد وفناء جزئى فيرده كسينوفان إلى الأرض والماء على حد سواء وهذا ما أكده فى أكثر من شذرة له مثل "تخرج الأشياء جميعاً إلى الوجود من الأرض والماء."(٧٤)

ويروى ديوجين لايرتوس أن كسينوفان سخر من عقيدة تناسخ الأرواح عند فيثاغورث.(٧٥) حيث عرّض بزعيم الفيثاغورية وما يؤمن به من تناسخ فى قصة تذكر "إن كسينوفان رأى فيثاغورس يوماً وهو ينهر رجلاً يضرب كلبه لأنه تبين من صوت نباح الكلب صوت صديق لفيثاغورس مات من فترة طويلة."(٧٦) وإذا كانت "كاثلين فريمان" لا ترى أن الشذرة قيلت على سبيل السخرية من فيثاغوس، وربما قيلت بشكل محايد.(٧٧) فإننا نرى أنها فى أساسها سخرية من فيثاغورس؛ وخير دليل على ذلك أن كسينوفان يقول فى مطلعها

---

(72) G. Grote : History of Greek, vol 1V, the bradley company publishing, New York, 1850, p.388.

(73) W. Windelband : history of ancient philosophy, trans by : H.E. Cushman, Dover publication, London, 1956, p.51.

(74) Fr.27, 29,33, in : J.Burnet : early Greek philosophy, p.120.

(75) Diogenes Laertius : op cit, vol II, 1X, 18, p.427.

(76) Fr.7, in : J.Burnet, op cit, p.118.

(77) K.Freeman : The presocratic philosophers, p.99.

"وسوف أنتقل إلى حكاية أخرى" فإذا عرفنا أن هذه الشذرة جاءت بعد الشذرة(٥) والتى يسخر فيها كسينوفان من بخل سمونيدس فلا يستبعد أن السياق فى جملته كان سياقاً ساخراً. وانكار كسينوفان لتنفس الإله[٧٨] من المفترض فيه أنه يمثل رفضاً للرأى الفيثاغورى القائل بتنفس الكون للزمان والمكان الفارغ من اللامتناهى المحيط به بنفس درجة كونه رفضاً لرأى أنكسيمنيس القائل بتنفس الإله للهواء الخارجى.[٧٩] بل أن "جثرى" يعتقد أن توحيد كسينوفان بين الإله وبين العالم معارضة لرأى فيثاغوس فى تنفس العالم حيث قصد القول بأن العالم الكروى الواحد يحتوى على كل ما هو موجود، ومن ثم فلا يوجد أى شئ إلى جانب هذا الواحد يتنفسه.[٨٠]

وتندر كسينوفان على الشاعر "سمونيدس" Simonides زميله ومنافسه فى بلاط "هيرون" ملك سيرقوسة فسخر من بخله وطمعه وخسته. وقال "أنه قايض هدية من فخذ جدى وأخذ مقابلها رجل بقرة كاملة." وقال عنه "إنه عادة ما يأخذ ولا يعطى."[٨١] ولا تستبعد كاثلين فريمان حدوث مثل هذا العداء بين الرجلين فقد عاشا فى عصر واحد وتقابلا لبعض الوقت.[٨٢] ومن ثم كانت فلسفة كسينوفان معارضة لفلسفة أسلافه ومعاصريه معارضة مباشرة. وكان مفهومه عن "الطبيعة الإلهية" أوضح من الموجود الأول لدى أنكسيمندر ذلك الذى كان مادة وإلها فى نفس الوقت، وأوضح من النار الموهوبة قوة العقل لدى هيراقليطس، إذ من الحط من شأن الأب السماوى أن يعانى الإزعاج بسبب الأعمال الفردية الخاصة بالتدخل والتدبير، وإيقاع العقوبات المستحقة على رعيته.[٨٣]

---

(78) Diogenes Laertius : op cit, vol II, 1X, 19, p.427.

(79) W.A. Heidel : "The pythagoreans and Greek Mathematics" an essay in : studies in presocratic philosophers, vol 1, p.351.

(80) W.K.C. Guthrie : op cit, p.374.

(81) Fr.5, in : J.Burnet, op cit, p.118.

(82) K. Freeman : op cit, p.90.

(83) Th. Gomperz : Greek thinkers, vol 1, pp. 159-160.

(د) رفض دجماطيقية المعرفة :

لا يقل إسهام كسينوفان التنويرى فى نظرية المعرفة أهمية عن إسهامه فى اللاّهوت، وإذا كنا قد لامسنا إتجاهاً نقدياً واقعياً فى هجماته على آراء السابقين عليه الدينية والفلسفية، فإننا نلمس نفس الإتجاه فى رفضه للقطعية المعرفية.

لم تكن لدى كسينوفان قناعة فى صدق مزاعم الشعراء والفلاسفة السابقين فى امتلاك الحقائق اليقينية، واعتبر أن واجبه التنويرى فى المجتمع الذى يعيش فيه إظهار النسبية المعرفية، وإيقاظ معاصريه من غرورهم الخادع. وقد لخص "كارل بوبر" منهج كسينوفان النقدى فى العبارة التالية "قد أكون على خطأ فى رأيى وقد تكون أنت على صواب، وقد نستطيع من خلال التحدث معاً فى هذه الأمور بشكل عقلانى أن نصحح بعضاً من أخطاءنا، فيقترب كلانا من الحقيقة."[٨٤] وأخذ كسينوفان يتجول فى المدن اليونانية المختلفة يكشف للناس – على مدى سبعين عاماً– عن محدودية ما لديهم من معارف وقابليتها للكذب، وكان رائداً فى ذلك لسقراط ومنهجه فى التهكم والتوليد.

ولكى نفهم نزعة كسينوفان هذه يجب النظر إليها فى ضوء كل أقوال كسينوفان الأخرى، وفى ضوء الظروف المحيطة والدوافع التى دفعت عليها. وقد أجمل "جيمس ليشير" J.H.lesher ذلك فى قوله "إن نزعة كسينوفان الشكية كانت رداً على أساليب التفكير الدينى الشعرى القديمة، رداً على ديانة هوميروس الأولمبية وعلى العرافة."[٨٥] ويعبر كسينوفان عن رفضه لقطعية المعرفة فى شذرة طويلة تقول "لم يوجد ولن يوجد أحد استطاع أن يصل إلى المعرفة اليقينية حول الآلهة، أو أى شئ من الأشياء التى أتحدث عنها هنا. وحتى إذا ما حدث وتلفظ إنسان بهذه الحقيقة اليقينية بضربة حظ، يظل مع ذلك لا يعرف أنه توصل حقاً إليها." وينتهى كسينوفان إلى الإعلان صراحة "أن كل ما يمكننا الوصول

(84) K.R. Popper : The unknown Xenophanes, p.43.

(85) J.H. Lesher : Xenophanes'scepticism, p.20.

إليه حول الأشياء جميعاً هو الظن وحده."[٨٦] وأكد ديوجين لايرتوس نفس هذا الرأى حيث قال على لسان كسينوفان "إن فكرنا قاصر عن الإحاطة بالمجموع الكلى للأشياء" واعتبره أول من أعلن أنه لا يمكن إدراك حقيقة الأشياء واتفق مع أنبادوقليس فى استحالة الحصول على الرجل الحكيم الذى يعرف الحقيقة.[٨٧]

وكان سند كسينوفان فى هذا الإنكار "أن الألهة لم توح بكل الأشياء إلى البشر منذ البداية، وإنما يصل البشر إلى الأفضل بالتدريج ومن خلال بذل الجهد المضنى."[٨٨] وتوفرت لديه الشجاعة فاعترف بأن كل نظرياته التى يقدمها مجرد أشباه حقائق وليست حقائق كاملة.[٨٩] وهناك سند آخر هو وجود فجوة لا يمكن عبورها بين المعرفة الإلهية الكاملة وبين المدركات البشرية، إذ مهما بلغت هذه الأخيرة من قوة لن تصل إلى مرتبة المعرفة الكاملة للإله. وما يفعله البشر هو اقتراب فحسب منها وليس حصولاً عليها.[٩٠] إنه التقابل الأبدى بين المطلق والنسبى الذى أكد عليه فيما بعد هيراقليطس وألكيمون الفيثاغورى فى رسالته "فى الطبيعة".[٩١] والذى يمكن رؤيته بوضوح فى تأكيد كسنيوفان على أن الإله الواحد مختلف عن البشر فى كل من الجسم والعقل.[٩٢] وكذلك فيما رواه أريوس ديديموس Arius Didymus من أنه وفقاً لكسينوفان "يعرف الإله الحقيقة، أما الآخرون فلا يصلون سوى إلى الظن وحده." .[٩٣] وكم أشاد شكاك القرن الرابع ق.م بشذرة كسينوفان (٣٤) وأعتبروها تبشيراً بمذهبهم القائل بعدم إمكانية الوصول إلى المعرفة، فهل كان كسينوفان مفكراً شكياً حقاً؟؟

---

(86) Fr. 34, in : J. Burnet, early Greek philosophy, p.121.

(87) Diogenes Laertius : op cit, vol II, 1X 20, p.427.

(88) Fr. 18, in : J. Burnet, op cit, p.119.

(89) Fr. 35, Ibid, p.121.

(90) G.S. Kirk & J.E. Raven : op cit, p.179.

(91) J. Barnes : The presocratic philosophers, vol 1, p.136.

(92) Fr.23, in : J. Burnet, op cit, p.119.

(93) J. Barnes : op cit, p.139.

يقدم سكستوس أمبريقيوس تفسيرين مختلفين للشذرة السابقة : الأول ينظر إلى كسينوفان على أنه فيلسوف شكاك حتى النخاع، وإنه ينفى نفياً تاماً امكانية الوصول إلى الحقيقة عن أى شئ. وأننا أشبه بمجموعة من الناس تبحث عن الذهب فى حجرة مظلمة تحتوى على العديد من الأشياء، فقد تهوى يد أحدنا بالمصادفة على الذهب ولكنه يظل ينقصه الدليل الذى يمكنه من الإستوثاق من صدق اكتشافه."[٩٤] أما التفسير الثانى فيجعل كسينوفان يقول بنزعة شك جزئية فحسب، وإن البشر يتوصلون إلى أشباه للحقائق اليقينية، فالمتاح للبشر هو الظن وحده، والصواب الأخذ بما يكون محتملاً.[٩٥]

ورغم أن ديوجين لايرتوس يروى شهادة سوتيون Sotion التى تؤكد التفسير الأول وتقول "إن كسينوفان كان أول من قال بأنه لا يمكن معرفة أى شئ."[٩٦] فإن المؤرخين يستبعدون هذا التفسير ولا يرونه منطبقاً على معنى شذرة كسينوفان.[٩٧] ليس فقط لأنه يقصر -بلا مبرر- مجال نظرية الشك عنده على ما يكون غامضاً، بل ولأنه تفسير يترجم جملة كسينوفان البسيطة "لا يعرف" οὐκ οἴδε إلى "لا يعرف أنه تقابل معها" οὐκ οἴδεν δ'τι ἐπιβεβληκεν ويطلب منا أن ننسب إلى كسينوفان الرأى المتكلف الذى يقول "إن معرفة الحقيقة تتطلب أن يعرف المرء أنه يعرف الحقيقة" ومن المستبعد أن يكون كسينوفان قد نادى بهذا. لأنه تفسير أكثر تعقيداً بكثير من جملة كسينوفان الأصلية.[٩٨] فلم تكن نزعة الشك لدى كسينوفان موجهة إلى المعرفة بجملتها،

---

(94) W.K.C. Guthrie : op cit, vol 1, p.395.

(95) Hegel : Lectures on the history of philosophy, vol 1, trans by : E.S. Haldane & F.H. Simon, Routledge & Kegan paul, London, 1955, p.247.

(96) Diogenes Laertius : op cit, vol II, 20, p.429.

(٩٧) من هؤلاء المؤرخين :
-W.K.C. Guthrie : op cit, p.396.
- J. Barnes : The presocratic philosophers, vol I, p.139.
- K. Freeman : op cit, p. 98, - J. H. Lesher : op cit, p.21.

(98) J. H. Lesher : op cit, p.21.

لأنه لا يستبعد التوصل إلى معرفة الحقائق البسيطة وإنما موجهة إلى معرفة الحقائق المطلقة اليقينية. كما أننا لسنا مع من يقرر أن الشذرة تخلو من أى جانب شكى اعتماداً على أن معنى الفعل eidenai المستخدم فيها كان "لا أحد قد رأى" وليس "لا أحد يعرف" لسنا مع ذلك لأن هذا الفعل كان يحمل منذ عصر هوميروس المعنى العام للفعل "يعرف" وقد استخدمه كسينوفان بهذا المعنى، علاوة على أن الكلمة eidôs فى البيت الثانى من الشذرة تقابل كلمة dokôs فى البيت الرابع والتى تعنى الظن فمن الطبيعى أن تترجم إذن بمعنى "يعرف".(٩٩) ومن ثم نعترض على قراءة "فرنكل" H.Fränkel للشذرة بأنها تتضمن منهجاً تجريبياً نقدياً يؤمن بالتجربة الحسية.(١٠٠) إذ لم يكن الفعل eidenai يعنى عند كسينوفان الرؤية الحسية وحدها كما ظن فرانكل ذلك.

فالتفسير المعتمد لنزعة كسينوفان بعيد جداً عما يؤمن به الشكاك المتأخرون أولئك الذين يتوقفون عن إصدار الأحكام لا بالتصديق ولا بالتكذيب. كان كسينوفان يمثل فيضاناً عارماً لروح النقد فى حين كان الشكاك على العكس يمثلون نفاذاً وموتاً لهذه الروح. لم يشك كسينوفان فى عملية الوصول إلى الاعتقاد الصحيح وإنما شك فى الوصول إلى معيار من خلاله يحدد الإنسان أى الاعتقادات تكون صحيحة وأيها لا يكون. ويجمل "جثرى" ما يعنيه كسينوفان بقوله "يعنى ببساطة أنه رغم كونه قد يصل إلى الحقيقة، لا يكون إقتناعه بأنه قد وصل إليها حقاً إقتناعاً كاملاً على الاطلاق، مع أنه قد يملك الأسانيد القوية للإيمان بأن رأيه قريباً من الحقيقة."(١٠١) ما ينكره كسينوفان هو أن تكون لدى البشر معرفة بما يكون يقينياً το σαφές وفى الوقت نفسه يسمح بالقول بأن لدى البشر اعتقادات قد تشبه فى بعض الحالات ما يكون صادقاً.(١٠٢)

---

(99) J. Barnes : op cit, p.138.

(100) H. Fränkel : op cit, p.127.

(101) W.K.C. Guthrie : op cit, vol I, p.395. N.5.

(102) J.H. Lesher : op cit, p.22.

كان الإله هو وحده المتمتع لدى كسينوفان بكامل المعرفة أما الإنسان فلا يملك سوى المعرفة النسبية فقط، وبهذا صاغ كسينوفان مشكلة إبستمولوجية فى غاية الأهمية : فلم يتساءل عما نعرف بل تساءل هل الذى نعرفه صادق أم لا. لقد كان كسينوفان على وعى كامل -كما تقول فريمان- بالصعوبات التى سوف تقود فيما بعد إلى قيام اللاأدرية agnosticism لدى السفسطائيين. فلم يزعم أنه يسوق الحقيقة المطلقة عن الإله لأنه هو نفسه لا يعرف أى وسيلة يمكنه من خلالها اختبار إن كان قد توصل إليها أم لا.(١٠٣)

لم يكن فكر كسينوفان مختلفاً فقط عن أفكار أسلافه من اللاّهوتيين، بل وعن أفكار الفلاسفة السابقين عليه والمعاصرين له، إذ لم يقل بقطعية هؤلاء ولم يقل إنها أفكار من وحى الإله وإنما نظر إلى كل نظرياته على أنها مجرد ظن فحسب يقترب بصورة ما إلى الحقيقة ولا يستبعد البعض أن تكون شذرة (٣٤) تمهيداً لمذهب كسينوفان اللاّهوتى والطبيعى كله، وإنها وردت فى مقدمة أشعاره جميعاً.(١٠٤)

أكد كسينوفان على محدودية المعرفة البشرية ونادى بضرورة وضع النزعة الواقعية النقدية محل النزعة القطعية الجازمة للمدرسة الأيونية. وكان الشك الذى مارسه شكاً جزئياً وليس شكاً فى المعرفة ككل. إذ شك فى العلم اللاّهوتى والطبيعى لأنه يتجاوز الإدراك البشرى.(١٠٥) وجاء سقراط فأكمل المشوار وأعلن صراحة "إننى أعرف أننى لا أعرف ولا شئ غير ذلك." وجعل رسالته فى الحياة توعية الناس بجهلهم. ويعلق "كارل بوبر" -فيلسوف العلم الحديث- على تصور كسينوفان بقوله إنه تصور بالغ الدقة والمصداقية حتى فى أيامنا الحالية، ويستخلص ثلاثة مبادئ أخلاقية للمعرفة عند كسينوفان استخلصها فيما بعد أرازموس Erasmus ومونتاجو Montaigue وفولتير Voltaire

(103) K. Freeman : The presocratic philosophers, p.98.

(104) J. Barnes : The presocratic philosophers, p.138.

(105) Ibid, p.139.

وهى : مبدأ القابلية للكذب "ربما أكون مخطئاً وربما تكون أنت على صواب، ولكننا من الممكن أن نكون نحن الإثنين على خطأ بالطبع." ومبدأ المناقشة العقلانية "نحن بحاجة إلى أن نختبر اختباراً نقدياً موضوعياً لكل أفكارنا." وأخيراً مبدأ الاقتراب من الصدق "بمساعدة مثل هذه المناقشات النقدية بإمكاننا أن نقترب أكثر وأكثر من الحقيقة وأن نحسن بشكل دائم من إدراكنا حتى فى الحالات التى لا نصل فيها إلى إتفاق.(١٠٦)

ويعلق كارل بوبر على الشذرة (٣٤) لكسينوفان بأنها "لا يوجد فى كل الأدب الفلسفى شيئاً أعظم صدقاً وموضوعية ونقدية منها وإنها الأعظم أهمية فى تراث كسينوفان كله."(١٠٧) وما قصد كسينوفان أن يقوله فيها هو "أن هناك عدداً كبيراً من الحقائق المهمة لا أحد يعرفها معرفة يقينية ولكن يمكن أن يخمنها، وفى الوقت ذاته هناك البعض الآخر التى لا يمكن لأحد حتى أن يخمنها."(١٠٨) ويشبه بوبر الدور الذى قام به كسينوفان فى العالم القديم بدور أينشتاين (+١٩٥٥) فى عصرنا الحديث؛ فالإثنان كانت المعرفة لديهما مجرد نسيجاً من التخمينات. ثم يتساءل بوبر كيف أمكن لكسينوفان أن يعرف ذلك منذ ٢٥٠٠ عاماً مضت ؟؟ والإجابة هى أن كسينوفان كان فى البداية يؤمن بصورة العالم والآلهة التى قدمها هوميروس ثم تحطمت أمامه هذه الصورة بفعل نقده الخاص لهوميروس فاستبدل الصورة الجديدة بالصورة المنتقدة القديمة، تماماً كما تحطمت صورة نيوتن لدى بوبر بفعل انتقادات أينشتاين له.(١٠٩)

ننتهى بهذا من استعراض الشق السلبى من فلسفة كسينوفان التنويرية رأينا فيه كيف كان كسينوفان ثورة عارمة على كافة الأفكار الرجعية البالية التى كانت تقيد انطلاق العقل الحر. ولننتقل الآن إلى تتبع الخطوات المؤلفة للشق الإيجابى عنده.

---

(106) K.R. Popper : The unknown Xenophanes, pp.52-53.
(107) K.R. Popper : op cit, p.47.
(108) Ibid, p.49
(109) Ibid, p.50..

[٢] الجانب الإيجابى (البنائى) :-

كان أبرز ما يتميز به كسينوفان ذلك الميل الفطرى والقوى إلى الصدق والموضوعية، وتم ترسيخ هذا الميل بقوة بما قام به من نقد للأساطير القديمة. وسوف نرى فى الشق الإيجابى كيف توصل كسينوفان إلى مفهوم عن ألوهية سامية منتشرة فى الكون كله تحكمه كما تحكم النفس الجسد. ويتألف الشق الإيجابى من فلسفة كسينوفان التنويرية من النقاط التالية :

أ- الإيمان بالوحدانية:

رغم مهاجمة كسينوفان للأفكار الدينية التقليدية العتيقة، فإنه لم ينته إلى رفض الدين، إذ أمن مثل هيراقليطس بأنه توصل إلى ديانة جديدة أفضل من العقائد المثيولوجية القديمة، وأنه الرسول المرسل لنشر هذه الديانة بين معاصريه. لكن الملاحظ أنه لم يدافع عنها دفاعاً قائماً على سلطة أنه نبى يتم إلهام الحقيقة إليه من أعلى كما هو الحال لدى بارمنيدس تلميذه وأنبادوقليس مثلاً، وإنما دافع عنها دفاعاً عقلياً خالصاً. فكان لآهوته لآهوتاً جديداً فى كل من أفكاره ومبادئه.

كان تصور كسينوفان عن طبيعة الإله فى الواقع نتيجة مترتبة على هجومه على التجسيم لدى الشعراء المثيولوجيين. فلم يكن الإله لديه مفهوماً ميتافيزيقياً، بل كان بديلاً وضعه كسينوفان للجوانب التى بغضها فى تصور الشعراء للإله. فما هو المفهوم الإيجابى الجديد الذى يقدمه عن الإله؟؟

آمن كسينوفان بإله واحد يتصف بكل الصفات التنزيهية. حيث كان الإله الواحد لديه كامل العلم والحكمة، صالحاً أخلاقياً، أبدياً، مكتفياً بنفسه، ثابتاً، تام القدرة، وهذا ما أجمله كسينوفان فى قوله "هناك إله واحد، الأسمى بين كل من الآلهة والبشر، لا يشبه البشر لا فى الجسم ولا فى العقل، كله بصر، وسمع، وكله عقل، يسيّر الأشياء جميعاً بقوة عقله وليس باستخدام أى أداة، يمكث أعلى فى مكان واحد لا يتغير ولا يتحرك على الإطلاق، فليس من اللائق له أن

يتحرك فيكون هنا فى وقت وهنالك فى وقت آخر"[١١٠]. وما نفهمه من الشذرات السابقة أن الإله كان ذا جسم لدى كسينوفان، ولكنه جسم خاص به وحده. فلم يكن كسينوفان متجاوزاً بهذا الشكل الكبير عصره لدرجة أن يقدم -كما يقول جثرى - مفهوماً جديداً يقول بموجود إلهى روحى[١١١].ولم ينحدر إلينا شىء يكشف عن طبيعة هذا الجسم الإلهى لدى كسينوفان. وإن كانت روايات سمبليقوس والأسكندر الأفروديسى، وسكستوس وديوجين لايرتوس[١١٢] تجمع على أن الإله كان لديه كروى الشكل.[١١٣].

وقد وردت روايات تاريخية عديدة تؤكد على هذه الأوصاف لدى كسينوفان. حيث ترد رواية أرسطو التى أكد فيها أنه كان أول مشايع للقول بالوحدانية، وأن الواحد عنده هو الإله[١١٤]. وهناك ديوجين لايرتوس الذى ذكر أن الإله لدى كسينوفان لا يشبه البشر بأى حال من الأحوال، لا يتنفس، كله عقل، وهو خالد[١١٥]. وهناك رواية هيبوليتوس "Hippolytus" التى تذكر أن الإله عنده أبدى وفريد ومتناغم فى كل الأنحاء وكروى، وقادر على الإدراك بكل ما فيه[١١٦]. كما أنه ليس للإله شهوات، ولا من اللائق له أن يكون خادماً للآخرين، فلا وجود لأى رئاسة بين الآلهة. ولا يلد ولا يولد، ولا يرتدى الثياب ولا يتكلم ككلام البشر على الإطلاق.

وإذا كان الفلاسفة الأيونيون قد أبقى بعضهم على مفهوم تعدد الآلهة كما كان، أو قال بعضهم الآخر بوجود إله أعلى فوق مجموعة من الآلهة تخضع له

(110) Frr. 23-24, 25, 26, in: J-Burnet: early Greek Philosophy, P. 119.

(111) W.K.C. Guthrie: A history of Greek Philiosophy. Vol 1. P. 376.

(112) Diogenes Laertuis: op cit, Vol II, IX, 19, P. 427.

(113) J. Barnes: Op cit, Vol. I, P. 98

(114) Aristotle: Metaphyics, Trans by: D. Ross, in: Great books of the western world. Vol 8. Benton publisher, Chicago, 1952, BI, ch5, 986b21-25, P. 504.

(115) Diogenes Laertuis: Op cit, Vol II, IX, 19, P. 427.

(116) J. Barnes: early Greek philosophy, P. 99.

فإن كسينوفان كان أول فيلسوف يونانى يقول بالتوحيد "Monotheism" الخالص. وليس من المستبعد أن يكون كسينوفان قد نقل عقيدته هذه من الفكر الدينى فى الشرق القديم(١١٧). غير أن الجديد فى موقفه ليس القول بالتوحيد، وإنما فى إقامة هذا التوحيد على أساس عقلى خالص. هو أنه ما يتفق فحسب مع الكمال الإلهى. فكانت أفكاره هذه فى يونان القرن السادس ق.م عملاً جديداً وثورياً. ومن ثم فنحن نتفق مع "بارنيس" فى رفض وصف "نيتشه" لكسينوفان "بأنه مجرد رجل صوفى وأن لآهوته ينبع من إحساس باطنى صوفى بالخشية من الإله"(١١٨).

يبرز الاتجاه العقلانى للآهوت كسينوفان فى البراهين المنطقية التى يبرهن بها على صفات الإله. حيث يشرح ثيوفراستوس كيف برهن كسينوفان على وحدانية الإله بحقيقة أنه الأسمى قوة بين كل الأشياء. إذا لو كان هناك أكثر من إله واحد لقال إنها متعادلة القوة بل قال إنه الأعظم والأسمى بين الجميع(١١٩).. ويبرز هذا الطابع فى قوله "ليس من اللائق للإله أنه يتنقل هنا وهناك". فكلمة اللائق "Piprepei" ليست بمعنى إستياطيقى، وإنما بمعنى منطقى أى "ليس من الممكن منطقياً لطبيعة الإله. حسب قول بارنيس(١٢٠). ويبرز كذلك فى برهنته على أن الإله غير مولود. إذ يثبت ذلك بواقعة أن كل ما يخرج إلى الوجود إما يخرج من شىء متشابه أو من مخالف له. غير أن الأشياء المتشابهة لا يمكن أن يؤثر الواحد منها فى الآخر، ولو كان خرج إلى الوجود من شىء مخالف فسوف يعنى هذا خروج شىء مما لا وجود له وهذا محال(١٢١).

---

(117) E. Hussey: the presocratics, Duckworth, London, 1974, P. 14.
وأنظر : د. مصطفى النشار : تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى. الجزء الأول، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٨١.

(118) J. Barnes: the presocratic philosophers, Vol I, P. 85.

(119) J. Barnes: early Greek philosophy, P. 96.

(120) J. Barnes: the phesocratic philosophers, P. 85.

(121) J. Barnes: early Greek philosophy, P. 96.

أما استعمال كسينوفان للصيغة الجمع "الآلهة" فى بعض أقواله جنباً إلى جنب استعماله للكلمة المفردة مثل قوله فى الشذرة (٢٣) "الإله الواحد الأسمى بين الآلهة والبشر" فلا يتضمن تناقضاً ذاتياً، إذ من الثابت تاريخياً كما رأينا أنه آمن بإله واحد فقط، كما يتفق على ذلك معظم الباحثين المحدثين[١٢٢]. فلم يكن استعماله للصيغة الجمع سوى نوعاً من التسليم باللغة الاصطلاحية الشائعة فى عصره، وليس عن إيمان منه بالتعدد. علاوة على أن العديد من استعمالاته للصيغة الجمع ورد بشكل عارض فى سياق هُجومه على الآلهة المجسمة. ولم يتحدث عن الآلهة بالصيغة الجمع عندما كان يقدم أفكاره الخاصة. لم يكن كسينوفان مؤمناً بالتعدد، أو بتسلسل تدريجى للأرباب محكوم بإله أعظم، فهذا رأى مبتذل -على حد قول بارنيس- يستهزئ بالروايات التاريخية ويتجاهل عبارات التوحيد الواردة فى الشذرات المعتمدة ويجعل كسينوفان بدلاً من كونه مؤمناً مجدداً، تقليدياً مبتذلاً.[١٢٣]

إذا كان كسينوفان يقول "يظل الإله فى نفس المكان بلا حركة: فإن الإله بذلك يكون عنده ممتداً فى المكان. مما يوحى بأنه كان مجسماً، فهل كان ثيودروس جومبرتس محقاً فى اتهامه لكسينوفان بالوقوع فى التجسيم[١٢٤]". الواقع أن جومبرتس قد بالغ إلى حد ما فى فهم هذا التشبيه على حد قول "كاثلين فريمان" -ونحن نتفق معها فيه- فقد كان الدافع الذى يقف وراء كلامه هذا

---

(١٢٢) من أمثال:

- Th. Gomperz: op cit, P. 160, J. Burnet: op cit, P. 129.
- W.K.C. Guthrie: op cit, P. 375, M.C. Stokes: one and many. P. 79.
- G. S. Kirk & Raven: the presocratic philosophers, P.170.

-أما كاثلين فريمان فترى أنه من الخطأ طرح سؤال هل قال كسينوفان بالوحدة أم بالكثرة فيما يخص الإله لأن السؤال نفسه كان بعيداً عن ذهن كسينوفان، ولم يظهر إلا عند بارمنيدس وتلاميذه. أنظر:

- K. Freeman: the presocratic philosophers, P.98.

(123) J. Barnes: the presocratic philosophers, P. 90.

(124) Th. Gomperz: Op cit, Vol I, P. 159.

المعاناة الشخصية التى كان يعيشها كسينوفان نفسه فى حياته غير المستقرة، وما قصد قوله هو "لما كان الإله الأسمى بين الجميع، فلا يمكن أن يكون رحالة متنقلاً كما كان كسينوفان وإنما متمتع بالراحة والهدوء اللتان كان كسينوفان يشتاق بشدة إليهما[١٢٥]". لقد أهتم كسينوفان بنفى كافة الصفات البشرية – أو حتى تلك التى يشتم منها ذلك– عن الإله، ليكُون أفضل من الآلهة الأوليمبية المخادعة، وأفضل منها كذلك فى أنه إلهاً كونياً عالمياً[١٢٦]. ولكسينوفان العذر فى أنه استعمل لغة مادية إستعارية فى حديثه عن الإله الواحد إذ لم يكن قد تم الفصل بعد فى الفكر اليونانى المبكر بين العالم المثالى وبين العالم المادى[١٢٧].

ولكننا نظل مع ذلك نأخذ على كسينوفان عيب أنه لم يفصل فصلاً واضحاً بين الوحدة الصورية وتلك المادية، بل خلط خلطاً كبيراً فى الصفات التى خلعها على الإله الواحد عنده. ولعل هذا ما لاحظه أرسطو فوصف كسينوفان بأنه مشوش الفكر لم يوضح شيئاً واستبعده مع مليسوس من دراسته لأنه لم يتوصل إلى طبيعة أياً من الوحدتين [الصورية والمادية][١٢٨].

حقاً لم يقدم كسينوفان نسقاً لاّهوتياً منسقاً وكاملاً، غير أن أفكاره الدينية اتسمت بدرجة كبيرة من الوضوح والتميز. فهو يضع الجوهر الأول فى مملكة الألوهية وينسب له القوة المفكرة فى حين أن الأيونيين السابقين عليه، يجعلونه فى عالم المادة وينفون تماماً عنه القوة الإدراكية. وخرج على تعدد الآلهة فى وقت مبكر وقاد ثورة فكرية تقول بلاّهوت طبيعى قائم على تحليل عقلى محايد للقوة العليا. ومن ثم كان لاّهوته –كما يشيد به بارنيس– إنجازاً عظيماً نجح صاحبه فى تحقيق قدر مدهش من التجريد والعقلانية فى مجال لا ينتج فيه الفكر التجريدى عموماً سوى خواءً أجوفاً، ويتخلى العقل فيه سريعاً عن مكانه للثرثرة"[١٢٩].

---

(125) K. Freeman: op cit, P. 97.
(126) Ibid, P. 97.
(127) K.F. Johansen: a history of ancient philosophy, P. 46.
(128) Aristotle: Metaphysics, B1 ch. 5, 986b21, P. 504.
(129) J. Barnes: the presocratic philosophers, P.94.

ب- وحدة الوجود:

إذا كان للإله عند كسينوفان -كما رأينا- صورة وجسم وامتداد في المكان، فهل وحد كسينوفان بين الإله وبين العالم في وحدة واحدة تسمح لنا بأن نعتبره من القائلين بمذهب "وحدة الوجود"؟؟

يتفق فريق كبير من الباحثين المحدثين(١٣٠) على القول بأن كسينوفان يوحد في نسقه اللاّهوتي بين الإله وبين الوجود، هذا رغم أن كسينوفان لا يصرح بذلك في الشذرات المنحدرة منه. ويعتمد هذا الفريق على العديد من الروايات التاريخية . وتأتي على رأس هذه الروايات رواية أرسطو الذي يذكر في نص واضح من سياقه أنه نقل مباشرة من كسينوفان وليس مجرد استخلاص فحسب، يقول "نظر كسينوفان إلى السماء في مجموعها وصاح هذا هو الواحد وهو الإله.(١٣١)" ثم بعد ذلك تأتي رواية الشاعر "تيمون" [ولد تقريباً عام ٣٠٠ ق.م] الذي وضع على لسان كسينوفان النص التالي "أينما أدرت عقلي وجدت أن كل شيء يحل نفسه في وحدة واحدة"(١٣٢). ثم شهادة ديوجين لايرتوس التي قال فيها "أكد كسينوفان على أن الكل واحد، وأن الإله متحد مع الأشياء جميعاً وأنه كروي"(١٣٣). ولا يستبعد بارنيس أن يكون أرسطو وتيمون يوردان بيتاً شعرياً مفقوداً لكسينوفان، وأنه رأى توصل إليه كسينوفان من تأمله في الكواكب السيارة في السماء(١٣٤). فالاطراد النجمي أقنعه بوحدة وجود شاملة.

يتصف الإله لدى كسينوفان بنفس الصفات التي يتصف الوجود بها عند

---

(١٣٠) ومن هؤلاء: E.Zeller: op cit, P. 44, J. Burnet: op cit, P. 129.
W.K.C. Guthrie: a history of Greek philosophy, Vo. I, P. 377.
W. Windelband: op cit, P. 47, A.S. Bogomolove: op cit, P. 80.
W.T. Jones: the classical mind, Barcourt Brace. New York,1969, P.19.

(131) Aristotle: Metaphysics, B1 . ch 5, 986 b24, P. 504.

(132) Th. Gomperz: Greek thinkers, Vol I, P. 159.

(133) Diogenes Laertius: Vol II. IX, 19, P. 427.

(134) J. Barnes: op cit, P. 99.

الإيليين. فالوجود واحد وثابت، وقديم، وأبدى وكذلك الإلـه. ولا يستبعد "جثرى" حدوث الصورة الجذابة التى نقلها أرسطو فى روايته، وأن كسينوفان قد وصف فى حركة إحتضان للكل وصاح "هنا يوجد الأول يوجد الإلـه".(١٣٥). ولكن علينا أن نلاحظ هنا أنه إذا كان كسينوفان يوحد بين الإله وبين العالم، فلا يعنى هذا أنه ينكر حدوث التغير فى العالم، طالما أن الإلـه ثابت عنده، إذ يسلم كسينوفان بالتغير ويسلم بوجود عدد لا متناهى من العوالم المتعاقبة. فالوجود ككل واحد ثابت، أما ما يتغير ويتحرك فهو أجزاء الوجود، حيث تنشأ من الطين [التراب والماء] ثم يتحول إلى أرض وينشأ عالم جديد وهكذا. مما دفع فندلباند إلى القول بإن "الإله لدى كسينوفان يحوى داخله جميع الأشياء ويظل دائماً فى مكانه، تذوب فى هذا الجوهر الواحد الثابت كل الأشياء الجزئية"(١٣٦).

إلى جانب القائلين بإيمان كسينوفان بوحدة الوجود يوجد فريق معارض لذلك يضم فرنر ييجر وكورنفورد وكارل بوبر، إذ يؤكد الأول أن كسينوفان لم يكن من القائلين بمذهب وحدة الوجود لأنه لم يقل العالم هو الإله، بل تحدث عن الإله بالسلب فقط".(١٣٧) فى حين ينفى كورنفورد بشدة أن كسينوفان قد وحد بين الإله وبين العالم، وقال إن ما قصده كسينوفان بالإله: قدرة واعية تبث الحياة فى العالم أجمع.(١٣٨) أما كارل بوبر فيستبعد ذلك ويعتبره من مبالغات المؤرخين فى خلع التصوير الأفلاطونى الأرسطى للمدرسة الإيلية على كسينوفان. وينتهى إلى القول "حقاً قد يكون كسينوفان قد تلاقى مع الشاب بارمنيدس، لكن من المستبعد أن يكون قد أخذ القول بوحدة الوجود منه، وما أخذه على الأرجح من بارمنيدس هوالقول بإن العالم كرة"(١٣٩). وفى كتابهما المشترك أكد الأستاذان

(135) W.K.C. Guthrie: op cit, P. 380.

(136) W. Windelband: history of ancient philosophy, P. 47.

(137) W. Jaeger: the theology of the early Greek philosophers, P. 43.

(138) F.M. Cornford: Greek religious thought, P. 87.

(139) K.R. Popper: the unknown Xenophanes, P. 45.

"كيرك ورافن" "G.S. Kirk & J.E. Raven" على خطأ الذين قالوا إن الإله متحد بالعالم عند كسينوفان، لأن هذا الاتحاد يتعارض مع الصفات التى يخلعها كسينوفان نفسه على الإله. إذ كيف يتحد الإله -وهو الساكن- بالعالم الذى يموج بالحركة؟؟ لقد كانت علاقة الإله بالعالم عنده أشبه بمفهوم المادة الأولى عند الملطيين يهب الحياة والحركة للأشياء فقط. ولم يكن الإله عنده حالاً فى العالم(١٤٠).

والواقع أن كل فريق من الفريقين - الفريق القائل بتوحيد كسينوفان بين الإله والعالم، والآخر المنكر لذلك- متمسك برأيه بشدة، وغياب وجود شهادة مباشرة من الشذرات المنحدرة من كسينوفان حول ذلك يصعب عملية الوصول إلى رأى حاسم فى هذا الخلاف المتشابك. وخلاصة الرأى الذى نطمئن إليه أن الفريقين ينسبان إلى كسينوفان تحديدات مذهبية كانت غريبة عليه وعلى عصره. إذ أن مفاهيم التوحد والإيمان بتعدد الآلهة، ووحدة الوجود كلها مفاهيم مضللة هنا، لأنها تشتمل على تميزات لم يفطن إليها مفكرو هذا العصر، ومن الخطأ فرض اصطلاحاتنا المعاصرة على فلسفة كسينوفان. فلم يكن فى ذهنه وهو يعرض أفكاره الدينية فى الألوهية مثل هذه التحديدات الدقيقة بين التوحيد وبين وحدة الوجود(١٤١). وما يحسب لكسينوفان ليس أنه من أنصار التوحيد أو من أنصار وحدة الوجود، إنما أنه لم ينته من هجماته إلى اعتناق الإلحاد، بل إلى تطهير فكرة الإله من آثار النواقص البشرية ومهد الطريق لقيام مفهوم أعمق للإله. كان إنجازه العظيم هو تشييد فلسفة دينية تنزيهية فى عصر كانت الأنظار جميعاً لا ترى فيه سوى التعدد والتجسيم.

جـ- نسبية المعرفة:

إذا كان كسينوفان فى هجماته على المعتقدات الدينية القديمة، لم يهدف

---

(140) G. S. Kirk & J. E. Raven: the presoratic philosophers, P. 172.

(١٤١) د/ مصطفى النشار: فكرة الألوهية عند أفلاطون. ط٢ مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٨ ص٧٤.

تقويض الدين تماماً، وإنما المحافظة على سمو الإله من النواقص، فإن الأمر لا يختلف كثيراً فى هجماته التشككية التى شنها على المعرفة القطعية لدى معاصريه، لم يستهدف مجرد السخرية وإنكار وجود الحقيقة تماماً، وإنما استهدف لفت انتباه معاصريه إلى النسبية الإبستمولوجية، وأن ما بوسع الإنسان الوصول إليه هو مجرد اقتراب فحسب من الحقيقة الكاملة وليس حصولاً نهائياً عليها.

فإذا ما تأملنا شذرة (٣٤) وجدناها لا تنكر فى حقيقة الأمر وجود الحقائق اليقينية المطلقة، وإنما تنكر فحسب إدعاء البشر المغرورين الحصول عليها. لأن معرفة الحقيقة أمر قاصر على الآلهة وحدها، لأن قدرات وملكات البشر محدودة ومن ثم فإن ما يدركونه محدود أيضاً. ما يظهر للبشر هو فحسب المظهر الخارجى، والظن هو الذى بوسع البشر، وهو الذى يتناسب أيضاً مع قدراتهم[١٤٢]. لكن هذا ليس كل ما فى الأمر، بل بإمكان البشر من خلال الجهد المضنى والبحث والتنقيب أن يحّسنوا من معارفهم هذه ويصلون إلى ما هو أفضل، ويقتربون أكثر من الحقيقة. وهذا مرهون بالجهد البشرى، وليس بالوحى الإلهى كما كان قديماً. وهذا ما يجسده كسينوفان فى قوله "لم توح الآلهة -فى الواقع- إلى البشر بالأشياء جميعاً منذ البداية، وإنما يكتشف البشر الأفضل من خلال البحث الطويل وعلى مرور الوقت[١٤٣].

كان كسينوفان متفائلاً فى نظريته الأبستمولوجية، يحدوه الأمل فى إحراز تقدم متواصل فى المعرفة البشرية. ولعل هذا ما قام به كسينوفان على مدى حياته كلها، إذ اتخذ من التمحيص والنقد منهجاً له فى حياته، واستطاع من خلاله أن يحسن بعضاً من تصوراته وتخميناته خاصة نظرياته العلمية، وكانت رخصته لمثل هذا التمحيص والنقد: القول بإن الإله لم يوح بالحقائق منذ البداية

(142) B. Snell: the discovery of Mind, trans by: T.G.R. Meyer, Harper torchbook, New York, 1960, P. 139.

(143) Fr 18, in: J. Burnet: op cit, P. 119.

للبشر[١٤٤]. ومن ثم كان النقد والتمحيص المنهج الذى أوصى كسينوفان غيره باتباعه للإقتراب من الحقيقة اليقينية، وهذا ما دفع كارل بوبر إلى الاعتراف بأن كسينوفان كان رائده فى الإيمان بأن المعرفة تكتسب من خلال اشكال الاحتمال وصور الدحض العقلانى وليس من خلال الملاحظة والتجربة كما قال فرنسيس بيكون[١٤٥]. فالذى يجعل نظرية أفضل من أخرى أحد أمرين: أنها توضح وتفسر أكثر من هذه الأخيرة، وإما أنها أعظم قابلية منها للاختبار والتمحيص. فهذه النظريات مجرد فروض اجتهادية للاقتراب من الحقيقة. ويصور بوبر موقف كسينوفان تصويراً جميلاً "إنه يرى أننا لا نعلم وإنما نعتقد فقط، إذ لو سألناه كيف تعلم ذلك؟؟ لكانت إجابته "لا أعلم وإنما أنا أفترض فقط. ولو كنت مهتماً بالمسألة التى اهتم بها فسوف أكون فى قمة السعادة لو حدث وانتقدت فرضى، وقدمت أنت فروضك البديلة له، وأنا بدورى سوف أحاول نقدها[١٤٦].

المعرفة الأفضل فى رأى كسينوفان هى الأقرب إلى الصدق، وكلما تقدمنا واقتربنا من الحقيقة تقدمنا نحو الأفضل. ولكن ما هو المحك المستخدم هنا لإثبات أن هذه المعرفة هى الأقرب إلى الصدق؟؟ المحك عند كسينوفان هو: القابلية للنقد والتمحيص. فمن خلال النقد العقلانى نصل إلى الأفضل. "حقاً قد لا يكون كسينوفان مفكراً شكاكاً متطرفاً، ولكنه كما يؤكد "ليشر"[١٤٧] يظل يبدو مفكراً شكاكاً نقدياً أكثر من ذلك الذى يريدنا "فرنكل" أن نأخذه به من أنه ذو نزعة تجريبية فقط[١٤٨].

يميز كسينوفان فى نظريته الإبستمولوجية بين المعرفة الكاملة اليقينية وبين الظن المتاح أمام البشر. أى فصل بين دائرة المطلق وبين دائرة النسبى.

---

(144) K.R. Popper: the unknown Xenophanes, P. 47.

(145) K.R. Popper: "back to the presocratics" P. 151.

(146) Ibid, P.P. 151, 152.

(147) J. H. Lesher: op cit, P. 25.

(148) H. Fränkel: Xenophanes' empiricism, P. 130

غير أن كسينوفان -فى حقيقة موقفة- لا يفصل فصلاً قاطعاً بين الدائرتين، بل يجعل هناك نوعاً من الترقى بينهما ويترك الباب موارباً أمام الطموح البشرى، إذ مع البحث الجاد الصبور سوف يرتفع النصيب الإنسانى من المعرفة ولكنه لن يصل إلى الحقيقة اليقينية المطلقة على الإطلاق. إذ أن قدرات البشر محدودة مهما عظمت "أما الإله فقدراته مطلقة، وما تصل إليه قدرات البشر هى آراء تتأرجح بين الصدق وبين الكذب. وهذا ما تجسده الشذرة (٣٨) التى تقول "لو لم يكن الإله قد اختار أن يجعل العسل حلو المذاق لكان البشر قد اعتقدوا لوقت طويل أن التين أكثر حلاوة". إذ تؤكد هذه الشذرة على النسبية التى يعتنقها كسينوفان. ويرى كارل بوبر أن كسينوفان كثيراً ما كان يذكرنا بأننا فى القيام بالحكم على الواقع "الموضوعى"(١٤٩) لا يجب أن ننسى أنه غالباً ما يكون رد فعلنا المباشر مقترناً بالمقارنة مع خبراتنا الماضية [أى مع القيمة النسبية المتغيرة بتغير المواقف القائمة فى هذا الواقع الموضوعى]. فالحكم الإنسانى إذن نسبى. وهى فكرة طورها هيراقليطس فيما بعد إذا ذهب -كما يقول جثرى- إلى أننا لا نقدر الأشياء التى نسميها سارة ومريحة إلا بالنظر إلى أضدادها. وجاء بروتاجوراس فعمم هذه الفكرة فى شعاره الشهير "الإنسان مقياس الأشياء جميعاً" ولا شك أن شعاره هذا كان النتيجة المترتبة منطقياً على مذهب كسينوفان السابق، إن لم يكن كسينوفان قد توصل إليها بنفسه (١٥٠).

يختلف كسينوفان فى نظريته للمعرفة عن الشكاك اليونانيين المتأخرين فى الأسس والنتائج المترتبة عليها. فبينما ارتكز كسينوفان فى نظريته على فصل غير تام بين المطلق والنسبى، اعتمد الشكاك على إنكار وجود المطلق نفسه، وبينما انتهى كسينوفان إلى الإيمان بإمكانية التقدم فى إحراز المعارف البشرية مع مرور الوقت وبذل الجهد انتهى الشكاك إلى التوقف التام عن إصدار الأحكام وإنكار وجود المعرفة اليقينية. والواقع "أنه بينما كان كسينوفان تقليدياً فى قوله

(149) K. R. Popper: the Unknown Xenophanes,, P. 46.

(150) W.K.C. Guthrie: op cit, P. 401.

إن معرفة الحقيقة قاصر على الآلهة فقط، فإنه كان مجدداً فى اعتقاده أن بمقدور البشر اكتشاف ما هو قريب للحقيقة، فكانت مناشدة كسينوفان لنا بممارسة التنقيب والبحث ورفض الكهانة، وكذلك الكوزمولوجيا النصف إلهية – تحولاً ثورياً فى طرق التفكير القديمة(١٥١).

كان كسينوفان مجدداً لأنه لم يقل بالإلهام الإلهى وسيلة للحصول على المعرفة كما قال شعراء وفلاسفة العصر السابق بل جعل الجهد والتنقيب وسيلة الإنسان الوحيدة للاقتراب من الحقيقة. كان مجدداً كذلك عندما أتاح للإنسان فرصة الاقتراب من دائرة المطلق. فليست كل الاعتقادات البشرية متساوية فى درجة الترجيح. أن الإسقاط التام لمعايير التمييز والمفاضلة لم يكن أمراً يناسب رجلاً قال لأتباعه كل مفاهيمكم عن الإله الأعلى مفاهيم خاطئة إن الإله بالشكل كذا وكذا. وأنه لا يجب علينا أن نأخذ المظاهر الخارجية بقيمتها الظاهرية بل علينا أن نتعمق لكى نقترب قدر الإمكان من الحقيقة الكامنة وراءها. وعندما نحس أننا وصلنا إلى ما يشبه الحقيقة علينا أن نشدد القبضة على ذلك(١٥٢). فجر كسينوفان إذن مشكلة التقابل بين المعرفة وبين الظن ومنذ عصره أصبح البحث عن هذه الحقيقة الكامنة الشغل الشاغل للفلسفة و العلم.

الخاتمة:

كان لهجمات كسينوفان على الأساطير الدينية أثر على كل من الشعراء والفلاسفة المعاصرين له والتاليين بعده. لقد دافع كسينوفان عن أفكاره بقناعة حماسية، وآمن ليس بقدرة هذه الأفكار على تدمير التقاليد البالية بل وبقدرتها على تشييد واقع أخلاقى ودينى وحضارى عظيم. ومما يحسب لكسينوفان أنه أول من صاغ العالمية الدينية والتى أضحت منذ عصره تحتل مكاناً بارزاً فى الدراسات اللاّهوتية لدى مفكرى اليونان(١٥٣). أما أفكاره الفلسفية فرغم أن الكثير

---

(151) J. H. Lesher: op cit, P. 35.

(152) W.K.C. Guthrie: a history of Greek philosophy. P. 398.

(153) W. Jaeger: the theology of the early Greek philosophy, P. 48.

منها لم يكن جديداً بل يعود إلى أنكسيمندر، إلا أن الجديد الذى قدمه أنه ابرز إلى الضوء النتائج المحتومة للثورة الفلسفية التى قادتها النظريات الأيونية على الإيمان الدينى فكان أول من أعلن لليونان أن الفلسفة قوة ثقافية قادرة على التغيير. "وكان -كما يشيد به فندلباند- الفارس المغوار للصراع الذى نشب بين التصور العلمى للكون الذى قدمه الآيونيون وبين الأفكار الدينية التقليدية، بين الاتجاه المادى للعلم الأيونى وبين المثيولوجيا ذات الطابع التعددى(١٥٤).

شيد كسينوفان بأفكاره التنويرية نوعاً جديداً من الديانة، وكانت قدرة هذه الديانة الجديدة على تغيير حياة وعقيدة اليونانيين هى التى جعلتها الأساس المناسب لقيام الثقافة الجديدة لدولة المدينة(١٥٥). وجاء بارمنيدس والأيليون فنهضوا بهذه العقيدة وطورها.

تأثر الإيليون بكسينوفان تأثراً عظيماً لدرجة أن عده أفلاطون وأرسطو رائد ومشيد المدرسة الأول، إن لم يكن بشخصه فهو رائدها بأفكاره وتصوراته(١٥٦). لن نفهم نظرية المعرفة لبارمنيدس إلا بوصفها تعتمد على التقابل الذى وضعه كسينوفان بين المعرفة وبين الظن. كما أخذ بارمنيدس إله كسينوفان بكل صفاته وجعله الوجود.ولكن بينما بحث كسينوفان عن المطلق كفيلسوف دينى، بحث عنه بارمنيدس كفيلسوف ميتافيزيقى. غير أن أعظم الروابط جوهرية بينهما أنهما بحثا معاً عن الوحدة(١٥٧). كما تأثر هيراقليطس بأفكار كسينوفان وذلك فى إيمان هيراقليطس بالطابع الظنى للمعرفة البشرية وحاجة الإنسان إلى الجسارة والتعمق كى يصل إلى مالا يعرفه وفى تفرد الإله عنده بمعرفة الحقيقة الكاملة(١٥٨). ومن المحتمل تأثره فى فكره الدينى بهجمات

---

(154) W. Windelband: op cit, P. 46.

(155) W. Jaeger: paideia, Vol I, P171.

(156) Plato: the sophist, trans by: M.A. Jowett. 242d, P. 249.

- Aristotle: Metaphysics, B1, ch5, 986b22. P. 506.

(157) T. F. Johansen: op cit, P. 46.

(158) Fr 7, Fr 8, in : J-Burnet: op cit, P. 133.

كسينوفان التنويرية على آلهة الأولمب. حيث يثور هيراقليطس على طرق العبادة التى تسيء فهم جوهر الألوهية أو تنسب صورة بشرية للإله. ويتحدث عن إله واحد حكيم قد يشاء أن يسمى زيوس وقد لا يشاء[١٥٩]. وكان تأثر ديمقريطس به فى إنكاره لوصول البشر إلى الحقيقة المطلقة لأنها تختبئ فى الأعماق وذلك فى الشذرة (١١٧) له[١٦٠].

كما مهد اتجاه كسينوفان النقدى لعقلانية سقراط الأخلاقية. ويفهم "كارل بوبر" معنى شعار سقراط "أعرف نفسك" بمعنى "أعرف كيف أن ما تعرفه محدود". ويفهم مناشدته لأن يكون السياسى حكيماً مطالبة السياسى الذى يحمل على عاتقه الكثير من المسئوليات أن يكون مدركاً دائماً لجهله[١٦١]. وامتدد تأثير كسينوفان هذا من خلال بارمنيدس وسقراط إلى افلاطون والذى أخذ فصل كسينوفان بين الحقيقة والظن فى تشييد القسمة الثنائية بين عالم المثل "الحقيقة" وبين العالم المحسوس "الأوهام"، فى حين غالى السفسطائيون فى هذا الفصل لدرجة أن اعتمدوا عليه فى إنكار وجود معرفة يقينية أصلا. ونادى أفلاطون متأثراً بهجوم كسينوفان على قصائد هوميروس وهزيود – بضرورة أن يحذف من قصائدهما الأساطير التى تتعلق بالألهة حتى لا تترسخ فى قلوب الصبيان، وإلى ضرورة التزام الشعراء فيما يكتبونه بنقاء وخيرية وسمو الإله[١٦٢].ولم يكن أرسطو بعيداً عن تأثير كسينوفان، إذ كان قول كسينوفان بحدوث تعاقب دائرى للدورات الكونية. تبشيراً بنظرية أرسطو فى قدم العالم. مما دفع جثرى إلى القول "إنه من الجور من أرسطو أن يهمل كسينوفان ويتناوله تناولاً مقتضباً ويتهمه بالسطحية والخلط[١٦٣].

---

(159) Fr 65, in : J-Burnet, op cit, P. 138.

(160) Fr 117: Ibid, P. 358.

(161) K. R. Popper: the unknown Xenophanes, P. 50.

(١٦٢) أفلاطون: الجمهورية ترجمة د. فؤاد زكريا، مراجعة د/ محمد سليم سالم. دار الكاتب العربى، القاهرة (بدون تاريخ) ٣٧٩-٣٨٠، ص٦٩.

(163) W. K. C. Guthrie: op cit, P. 390.

وامتدد تأثير رسالة كسينوفان التنويرية إلى الشعراء أيضاً. فقد التقى بندار Pindar مع كسينوفان فى بلاط "هيرو" Hiero ملك سيرقوصة وتأثر به ومن هجماته على الشعراء ومن سخريته من التملق المبالغ فيه للقوة الرياضية ويعلن رفضه لأن تكون الآلهة متوحشة، آكلة لحوم البشر، ويذكر أنه يتحدث على النقيض مما قاله أسلافه من الشعراء(١٦٤). وأخذ الشاعر "ابيخارموس" Epicharmus بأفكار كسينوفان اللاهوتية فردد الصورة التشبيهية التى قالها كسينوفان من أن كل كائن يجعل الإله على صورته الخاصة. وترد له شذرة عبارة عن ترديد لبيت كسينوفان حيث تقول "لا يرى ولا يسمع إلا العقل وحده، أما أى شيء غيره فأصم أعمى"(١٦٥). وهناك رواية وردت عند أرسطو عن علاقة ابيخارموس بكسينوفان تقول "إن ابيخاموس قد قال عن كسينوفان إنه يتحدث بالحقيقة ولكن حديثه ليس لائقاً"(١٦٦). ونفهم من ذلك أن ابيخارموس قد اتفق مع كسينوفان فى أرائه ولكنه اعترض على طريقة من طرق تعبيره عنها. وجاء "ايسخولوس" فأخذ من كسينوفان ضرورة سكون الإله وقال فى مسرحية سبليكيس Supplices "إذا كانت كل الأفعال البشرية لا تتم بدون الاعتماد على وسيلة فإن الإله دائماً ما ينجز غايته بشكل متساوى فى كل مكان وهو قائم دائماً على عرشه المقدس"(١٦٧).

ويهاجم الشاعر الجرىء "يوربيدس" الآلهة القديمة اعتماداً على نفس الأساس الذى اعتمد عليه كسينوفان حيث يرفض فى مسرحية "هرقل" Heracles الاعتقاد فى أن الآلهة فاسقة، أو يخدع الواحد منها الآخر ويعترض على وجود سيادة بين الآلهة على أساس أن الإله لا يحتاج إلى شيء(١٦٨). ويعتبر ذلك مجرد حكايات بائسة يرددها الشعراء. ولا يستبعد "بارنيس" أن يكون سياق المسرحية

(164) K Freman: op cit, P. 94.
(165) Ibid, P. 93.
(166) Aristotle: Metaphysics, B IV, ch5, 1011a6, P. 529.
(167) W.K.C. Guthrie: A history of Greek philosophy, Vol I, P. 374.
(168) M.C. stokes: one and many, P. 80.

مأخوذ بحرفيته من قصائد كسينوفان(١٦٩). كما استخدم "يوربيدس" فى مهاجمة الإعجاب التقليدى فى القوة الرياضية نفس أساليب وحجج كسينوفان(١٧٠).

أما الشاعر تيمون Timon [عاش فى النصف الأول من القرن الثالث ق.م] فكان معجباً بشدة بكسينوفان وقلده فى أفكاره، وأهدى إليه نقده الشخصى والساخر من الفلاسفة الأوائل(١٧١). وكذلك تأثر بفكرة التقدم البشرى فى العلوم والفنون عند كسينوفان "سوفكليس" خاصة فى مسرحية "انتيجون" حيث امتدح سوفكليس البراعة والمثابرة البشرية، وذهب "إلى أن الجنس البشرى تعلم بواسطة بروميثوس أول ما تعلم الاعتماد على عقله"(١٧٢).

كان كسينوفان إذن مفكراً تقدمياً، اتخذ الكوزمولوجيا أداة للهجوم على لآهوت هوميروس وقدم حججاً عقلية مفحمة هدم بها الديانة التقليدية وشيد ديانة جديدة تقول بالوحدانية والتنزيه ونجح فى التوفيق بين الفلسفة والدين، أو كما يعبر "بارنيس" عن ذلك "لم تكون الفلسفة واللآهوت عنده فرعين منفصلين فى غصن زيتون بل كان العلم يرسخ اللآهوت و اللآهوت يحرر العلم من شبح الآلية الملحدة. استعمل كسينوفان عقله لتشييد لآهوت جديد يصلح لأن يكون إطاراً ملائماً للعلم الأيونى فكان رائد اللآهوت الطبيعى(١٧٣). وكان شاعراً حار العاطفة، شاعراً -كما يصفه جثرى- أخذ على عاتقه القيام بمهمة الشعر التربوية التنويرية خير قيام"(١٧٤).

لكن رغم هذا العمل التنويرى لكسينوفان هناك مواطن ضعف وانتقاد تؤخذ عليه. منها مخالطة كلامه للسذاجة أحيانا. مثل حديثه عن ولادة الشمس وموتها كل يوم، وعدم دخوله فى معترك السياسة ومحاولة تطبيق أفكاره فى

---

(169) J.Barnes: op cit, P. 91.

(170) W. Jaeger: paideia, Vol I, P. 174.

(171) W.K.C. Guthrie: op cit, P. 366.

(172) Ibid: P. 400

(173) J. Barnes: the presocratic philosophers, Vol. I, P. 99.

(174) W.K.C. Guthrie: op cit, P. 383.

تغيير نظام الحكم السائد فى عصره، وليس الهروب من أمامه. ومن الانتقادات التى تأخذها كاتلين فريمان عليه أنه لم يعين بوضوح العلاقة بين الإله الواحد وبين العالم، كما أن هناك تناقضاً فى كلامه. "إذ لو كان الإله هو العالم وهذا الأخير يحتوى على أجزاء فكيف يمكن أن يُقال عنه إنه الأسمى بين الجميع". وتشير كذلك فريمان إلى تناقض أخر فى وصف كسينوفان للإله بأنه يسيطر ويحكم الجميع. فلابد أن يكون هناك شىء آخر كى يحكمه فكيف يكون هناك أخر إذا كان الإله والعالم متحدين عنده(١٧٥)؟؟

لكن ما نقوله فى تقيمنا النهائى لفلسفة كسينوفان التنويرية أن الفلسفة عنده طرقت مجالات جديدة فى أكثر من اتجاه، وبذرت العديد من البذور الجديدة التى أثمرت ثمراً يانعاً عند خلفاءه. وما أجمل كلمات ثيودروس جومبرتس عنه "لقد كان زارعاً وحاصداً فى وقت واحد. بذر بيد البذرة التى منها سوف تنبت شجرة قوية راسخة فى غابة الفكر اليونانى، وسن بالأخرى البلطة التى كان عليه أن يهوى بها ليشذب ليس شجرة الديانة التقليدية وحدها، بل ويشذب العديد من الجذوع الأخرى القوية(١٧٦).

(175) K. Freeman: the presocratic philosophers, P. 95.

(176) Th. Gomperz: Greek thinkers, Vol. I, P. 164.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر: أ- المصادر المترجمة إلى اللغة الإنجليزية:

1- Aristotle: De caelo, Trans by: J.L. stock. In: "The works of Aristotle," Vol II. Oxford, at the Clarendon press, London, 1947.

2- ---------- : Metaphysics, Trans by: D. Ross, in: "Great books of the Western world, ed by: R.M. Hutchins, Vol 8, Benton Publisher, Chicago, 1952.

3- ---------- : Rhetoric, Trans by: D. Ross, in: Great books of the Western world, Vol., 9.

4- Plato: The sophist, Trans by: M.A. Jowett, the Dialogues of plato, Vol III, Oxford, at the clarendon press, London, 1953.

5- Diogenes laertius: Lives of eminent philosophers, Trans by: R. D. Hicks, Vol II, Harvard university press Cambridge, 1972.

ب- المصادر المترجمة إلى العربية:

١- **أفلاطون**: "الجمهورية" ترجمة د. فؤاد زكريا، مراجعة د. محمد سليم سالم. دار الكاتب العربى، القاهرة (ب.د).

ثانياً المراجع: أ- المراجع الأجنبية:

1- Barnes(J): early Greek philosophy. Penguin books, London, 1987.

2- ---------- : The presocratic philosophers, Roultedge & Kegan paul, London, 1982.

3- Bogomolov(A.S): history of ancient philosophy. Trans by: V. stankerich, progress publishers, Moscow, 1985.

4- Burnet(J): early Greek philosophy, 4th ed, Adam & Charles Black, London, 1975.

5- Caird(E): The evolution of theology in the Greek philosophers, Vol. I, Glasgow Maclehose, Jackson, 1923.

6- Cornford(F.M): Greek religious thought, J. M. Dent & Sons, London, 1950.

7- Fränkel(H): "Xenophanes' empiricism and his critique of knowledge," an essay in: the presocratics, ed by: A. P. D. Mourelatos, Anchor books, New York, 1974, P. 118 to P. 131.

8- Freeman(K): The presocratic philosophers, 2nd ed, Oxford, Basil Blackwell, 1959.
9- Goldmann(L): The philosophy of the Enlightenment, Trans by: H. Maas, Routledge & Kegan paul, London, 1973.
10- Gomperz(th): Greek thinkers, Traby: L. Magnus, Vol I, John Murray, London, 1920.
11- Grote(G): history of Greece, Vol IV, the Bradley company publishing, New York, 1850.
12- Guthrie(WK.C): A history of Greek philosophy. Vol. I, Cambridge, At the University press, 1969.
13- Hegel: Lectures on the history of philosophy, Trans by: E.S. Haldane & F.H. Simon, Vol I, Routledge & Kegan paul, London, 1955.
14- Heidel(W.A): "the pythagoreans and Greek Mathematics" an Essay in: Studies in presocratic philosophers, ed by: R.E. Allen & D.J. Furley, Vol I, Routledge & Kegan paul, New York, 1975. PP 350-381.
15- Hussey(E): The presocratics, Duckworth, London, 1974.
16- Jaeger(W): Paideia (the Ideals of Greek culture) trans by: G. Highet, Vol I, Oxford, London, 1948.
17- ---------- : The theology of the early Greek Philosophers, At Clarendon press, Oxford, London, 1948.
18- Johansen(K.F): a history of ancient philosophy, trans by: H. Rosenmeier, Routledge, London, 1998.
19- Jones(W.T): the classical mind, 2nd ed, Barcourt Brace. Jovanouich inc, New York, 1969.
20- Kant(A): "What's the Enlightenment" an essay in: The Enlightenment, ed and trans by: P. Gay, Simon and schuster, New York, 1973, PP 384 - 389.
21- Kirk(G.S) & J.E. Raven: the presocratic philosophers, Cambridge, at the University press. 1963.
22- Lesher(J.H): "Xenophanes' Scepticism", an essay in: Essays in Ancient Greek philosophy, ed by: J.A. Anton & A. Preus, Vol II, State University of New York. Press, Albany, 1983, PP 20-40.
23- Popper(K.R): "back to the presocratics", and essay in: Studies in presocratic philosophy, ed by: R. E. Allen & D.J. Furlev. PP 130-153.

24- ---------- : "The unknown Xenophanes", and essay in: the world of Parmenides, ed by: A.F. Petersen, Routledge, London, 1998. PP. 33-62.
25- Snell(B(: the discovery of Mind, Trans by: T.G.R. Meyer, Harper Torchbook, New York, 1960.
26- Stokes(M.C): One and many in presocratic philosophy, the trustees For Harvard University, 1971.
27- Windelband(W): history of ancient philosophy, Trans by: H.E. Cushman, Dover Publication inc, London, 1956.
28- Zeller(E): Outlines of the history of Greek philosophy, Trans by: L.R. Plamet, 13th ed, Dover publications inc, New York, 1980.

ب- المراجع العربية:

١-النشار (د. مصطفى حسن): فكرة الألوهية عند أفلاطون، مكتبة مدبولى، القاهرة ط٢، ١٩٨٥م.
٢- ــــــــــــ : تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى، الجزء الأول، دار قباء للطباعة، القاهرة، ١٩٩٨م.
٣-بورا (س.م): التجربة اليونانية. ترجمة د/ أحمد سلامة محمد. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
٤-توماس (هنرى): أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، ترجمة / مترى أمين، مراجعة د/ زكى نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٤م.
٥-كوملان(ب): الأساطير الإغريقية والرومانية، ترجمة: محمد رضا محمد، مراجعة: محمود خليل النحاس. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.